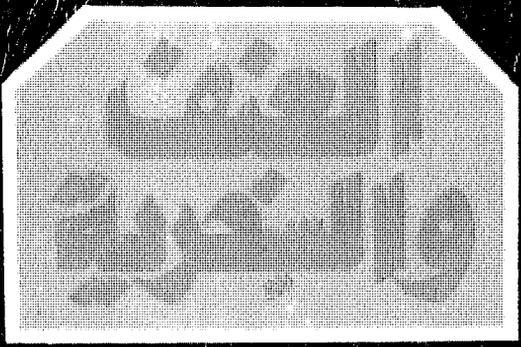


الأساطير
والأحاديث
والقصص
والخرافات



روايات
المسائل

البيرقصيري



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة

شهرية

لنشر

القصص

العالمي

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال



رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حروش

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود فاسم



ثمن النسخة

سوريا ١٠ ليرة - لبنان ٦٠ ليرة - الأردن

٢٤ فلس - الكويت ١,٢٥ فلس -

السعودية ١٢ ريالاً - تونس ٢ دينار - المغرب

٢٥ درهما - البحرين ١,٢٠ دينار - النجدة

١٢ ريالاً - دبي / ابو ظبي ١٢ درهما -

مسقط ١,٢٠ ريال - عرة الصفة القدس ٢

دولار - لندن ١,٥٠ حك

العدد ٥٢٨

اكتوبر ١٩٩٢ • ربيع ثان ١٤١٤ هـ

NO - 538 - OC - 1993

اهداءات ٢٠٠١

أ. صلاح راتبج

القاهرة

الإشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٢٥ جنيهاً فى ج . م .
ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير
حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولاراً - أمريكا وأوروبا
وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠
دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة
دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية
بالبريد .

للاشتراك فى الكويت السيد عبدالعال بسيوني زغلول
الصفاح ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ٤٧٤١١٦٤
الإدارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتدئين
سابقاً) ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات ص ب
٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا
المصور - القاهرة ج م ع

تلكس TELEX 92703 hilal u n

فلكس FAX 3625469

العنف والسخرية

تأليف
البيير قيسيري

ترجمة
محمود قاسم



دار الهلال

هذه هي الترجمة الكامل لرواية
LA VIOLENCE ET L'ADRESION
PAR
ALBERT COSSERY
1964

الغلاف للفنان :
حلمي التونى

قبل أن تقرأ

المصادفة وحدها هي التي ساقتنا لترجمة بعض روايات البير قصيرى .
وهي بكل المقاييس مصادفة جميلة ، وبالغة الأهمية . ف «قصيرى» كان
مجهولا تماما قبل أن نترجم له رواية «شحانون ومعتزون» التي نبهت القارئ
العربى لقيمته، وأهميته . فهو كاتب مصرى فى كل ما كتبه رغم المسافتين
المكانية والزمنية التي فصلت بينه وبين وطنه الذى رحل عنه منذ عام ١٩٤٥ ،
أى منذ قرابة نصف قرن ..

ومما نعتز به ان نقدم واحدة من أهم روايات البير قصيرى احتفالا
ببلوغه الثمانين من العمر ، وهى باعتراف الكاتب فى خطاب أرسله الى
المرجم روايته الأكثر أهمية فيما كتب .

وقصيرى ، المولد فى مدينة القاهرة ٣ نوفمبر عام ١٩١٣ ، لم يكن
ذنبه أن لغته الاولى التي تعلمها هى الفرنسية ، ولعله حاول أن يعوض ذلك
بأن توغل فى الأحياء الشعبية فعاش فيها سنوات طويلة ، واحتك بالناس فى
أروقتها ، عاشر البسطاء فكان من أفضل من عبر عنهم . من هنا جاءت
أهميته ، ليس فقط لأنه كتب عنهم ، ولكن لأنه صنع منهم المفكرين
وأصحاب الرأى والفلاسفة ، ففى رواياته كان فلاسفة الشعب هم ابناءه
وليسوا الكتاب من امثال قصيرى نفسه ، وفى أغلب روايات الكاتب هناك
اصحاب رأى وصناع تمرد لما يدور من حولنا . وهؤلاء ينتمون الى هذه

الطبقات الدنيا ، مثل شخصية عبد العال فى رواية «منزل الموت الاكيد» .. فهو يقف برأيه وفكره ضد صاحب المنزل الذى يُسوّف المُستأجرين فى الاصلاح ، حتى تجئ لحظة الخطر .

وفى بعض روايات قصيرى هناك المثقف الذى عليه ان يعتزل المجتمع وليس امامه سوى أن يعيش مع البسطاء ، وفى الاحياء الشعبية ، وهذا المثقف ثورى سلبي فى رواية «شحانون ومعتزون» .. يعيش على الهامش ، يمكنه ان يعمل فى ماخور ، أو يرتاده ، من اجل لحظة متعة ثم يهرب الى المخدرات ، ويظل ليله متيقظا ، وينام طيلة النهار . وقد تماثل هذا فى كل من «جوه» استاذ التاريخ المستقيل ، و«يكن» الشاعر ، و«الكردى» الموظف . ونحن لا نعرف منبع جذور الاستاذ، لكن «يكن» يعيش مع أمه الفقيرة المعدمة، التى تنكفى فى غرفتها على آلة الحياكة من أجل ان تدبر معاشها، وبعض المطالب الصغيرة لابنها الشاعر الشعبى الدميم الذى عرف السجن ، اما «الكردى» فهو الموظف الذى لا أسرة له ولا جنور ولذا فمن السهل ان يرتبط باستاذة جوه ، نموذجة المفضل .

وهذا الثلاثى موجود بشكل ما فى رواية «العنف والسخرية» التى كتبها قصيرى عام ١٩٦٤ اى بعد رواية «شحانون ومعتزون» بتسع سنوات تقريبا . ورغم أن هناك بعض الاختلافات فى السمات والمكان فى الروائيتين ، فان هناك نقاط تشابه واضحة ، ولكنه تشابه شكلى فى المقام الاول ، فاذا كانت رواية «شحانون ومعتزون» تدور فى شوارع منطقة الازهر وما حولها فى أواخر الثلاثينات ، فان احداث رواية «العنف والسخرية» تدور فى مدينة الاسكندرية ، بين حى الجمرك وشارع الكورنيش وأبنية المدينة الشعبية . ويقوم قصيرى هنا بتجريد المدينة ليجعلها اى مكان فى العالم ، فهو لا يذكر

اسم الاسكندرية مباشرة ، وان كان قد سمي حى الجمرک بالميناء والكورنيش
ومن الواضح ان الكاتب قد صاغ هذه الرواية ، ومدينة الاسكندرية فى
ذاكرته بعد ان غادر مصر بحوالى عشرين عاما ، وذلك خلافا لذاكرته مع
القاهرة عندما كتب روايته السابقة ، حيث كانت المسافة الزمنية أقل ..

لذا سعى قصيرى الى تجريد المدينة من اسمها ، لكنه لم يطمسها
تماما ، وفى هذه المدينة عاش فى الاحياء الشعبية ، فأبطال هذه الرواية
يعيشون بكافة مستوياتهم فى اطلال المدينة ، بدءاً من كريم الذى اختار
غرفة فوق السطح ، يقيم بها منذ سبعة ايام فقط وهو القادم من حى شعبي
ملئ بالحركة والبشر ، ثم خالد عمر الذى تحول الى تاجر كبير، وهو الذى
لا يجد متعته إلا مع الفقراء ، ولا يحس بأى سعادة الا بين البسطاء . أما
هيكل ، فرغم ان الرواية تشير انه يتصرف كأحد ابناء الطبقة الراقية ، فاننا
نفهم من حوارهم مع خادمه «سرى» انه يعيش فى منطقة شعبية ، يهتم فيها
الناس بأن يعرفوا المزيد من الحكايات عن هذا الانيق صاحب البذلة
الواحدة.

المكان الوحيد الفخم الذى نراه فى الرواية هو «النادى» الذى يرتاده
المحافظ الجديد واعوانه ، وهو من ناحية مساحة المكان الدرامية يعادل
المأخوذ فى رواية «شحاتون ومعتزون» ونعنى هنا بالمساحة الدرامية انه
المكان الذى تدور فيه أغلب اجزاء الرواية ، وهو الساحة التى تحدث فيها
مواجهة المحافظ من طرف واحد .

ولا شك ان هناك تشابها فى العلاقات هنا مع رواية «شحاتون
ومعتزون» وقبل ان نشير الى ذلك ، يهمنى الاشارة الى ان المثقف قد تحول
الى متمرّد ايجابى وان كان شكل التمرد هنا قد اتخذ شكلا سلبياً هو
السخرية من المحافظ ، فاذا كان جوهر وزملاؤه قد اعتزلوا الحياة العامة ،

وعاشوا على الهامش ، فان متعة السخرية من المحافظ هي عملية ذاتية خاصة بهيكل الذى يشعر بالندم الشديد لأن المحافظ قد أُقيل من منصبه ، لانه كان لعبته التى يمارس عليها تمرده ..

«وهيكل» هذا قريب فى بعض صفاته من جوهر ، فهو رجل ينتمى الى طبقة اجتماعية أعلى قياسا الى زملائه ، وهو صاحب رؤية للعالم من حوله ، وهذا هو سبب اعجاب مجموعة من الشباب به ، والتفافهم حوله ، فاذا كان جوهر قد وجد فى الحياة الهامشية التى اختارها سعادته الخاصة ، وهو الاستاذ الجامعى سابقاً الذى اكتشف زيف التاريخ ، فان هيكل اصغر سنا (٣٦ سنة) يعيش شبه معدم ، ولذا فانه فى حاجة الى تمويل من خالد عمر ، الثرى الذى يمكنه ان يتاجر حتى فى النمرور.

هذا الـ «هيكل» يعتبر المحرك الرئيسى للتمرد الساخر . واعجاب كل من كريم وخالد عمر به أشبه بنفس الاعجاب والتقدير الذى كنه كل من «الكردى» و«يكن» لجوهر ، وذلك رغم اختلاف سمات الاربعة ، ف «كريم» شخص هامشى ، يعمل فى صناعة الطائرات الورقية ، وخالد عمر تاجر ثرى لم يكف عن الاختلاط بالبشر ، أما الـ «كردى» فهو الموظف الذى يعبر عن تمرده بكلمات رنانة ، وهو شخص مجوف ، يمكن قيادته بسهولة ، أما «يكن» . فهو اسم لشاعر حقيقى عرفه قصيرى وهو فى الرواية عرف السجن، وعرفه الناس متمرداً ، ولكنه مشغول بالهروب من رجال الشرطة ، وعشق فتاة تحب الموسيقى وتدرسها من طرف واحد. «يكن» هو الشخص الوحيد المبدع فى عالم قصيرى فى هاتين الروايتين ، وكما أشرنا فان صناع هذا العالم هم من البسطاء ، وليسوا من المثقفين أو المبدعين . مثلما حدث فى رواية «منزل الموت الاكيد» .

وهناك شخصيتان مختلفتان تماما فى السمات هما : «نور الدين» ضابط الشرطة الشاذ جنسيا فى رواية «شحاوون ومعتزون» .. والذى يكتشف كنوز هذا العالم الهامشى ، فيقرر ان يصبح مواطنا فى مملكة جواهر بعد معرفته أن هناك فلسفة خاصة لهؤلاء الناس ، ثم تزداد حيرته عندما يحاور «يكن» فى غرفته بالفندق حين يحدثه عن القنبلة الذرية المنتظرة .

تكرر هذا الحوار من جديد من خلال الاستجواب الذى تم بين الضابط حاتم وبين كريم فى مبنى المحافظة . فحاتم يميل الى مثل هذا النوع من الحوار مع متمردين من طراز كريم ، ورغم خبرة الضابط الطويلة فى الاستجواب ، فانه يحس بالارتياح حين يحاور كريم ، بل ويدهش حين يراه يُقبَل يد المحافظ دليلا على تغييره وتحوله المضاد .. وكأنه يحس ان على كريم ألا يفعل ذلك مهما كانت الاسباب ..

أما الشخصية المقابلة فى رواية «العنف والسخرية» .. فهى المدرس «عرفى» ، وهو رجل يختلف كثيراً عن نور الدين ، فهو يعيش فى عالم من البراعة . تمثله امه المجنونة من طرف ، فالمجنون هو الشخص الوحيد الذى لا يعرف المكر ، والخبث ، أما على الطرف الثانى فهناك تلاميذ مدرسته الصغيرة الذين يأتون للتعليم لديه طوعا ، وهو يعلمهم على طريقته الخاصة ، فالمدرسة مفتوحة ، والاولاد على سجيبتهم ، وهم يأتون إلى المدرسة صيفا فى أثناء العطلة ، واثناء حرارة الجو التى تلهب المدينة ، وهؤلاء الصغار يجب أن يكونوا أطفالا ، فاذا خرج اى منهم من مرحلة الطفولة فقد براعته ، وتعلم الخبث والمكر ، فالكبار تملؤهم الانانية والغباء والقبح والطموح الخائب وانهم جميعاً معدبون بطموحهم ، لذا فهو لا يتوانى عن الاشارة للصغير «زرطة» الذى لم يعد طفلا بأن موعد طرده من المدرسة قد اقترب .. لان على

الأطفال فقط (من سن السادسة حتى سن العاشرة) ان يبقوا هناك ..
ويهمنا ان نشير ايضا ان قصيرى لم يغير وجهة نظره فى هذه
الرواية تجاه المرأة فحن نرى «قمر» عاهرة صغيرة ، وكأنها صورة مكررة
من «ارنبه» التى ماتت ، مخنوقة فى رواية «شحاذون ومعتزون» ، و «قمر»
هنا عاهرة طيبة ، لعلها تمارس هذه المهنة لأول مرة ، والمآخور هنا هو
الكورنيش نفسه، حيث يصطاد الرجال بنات الليل أو العكس ، وفوق هذا
الكورنيش التقى كريم بعاهرته التى جاءت فى أول الرواية .. ثم جاءت مرة
أخرى فى نهايتها .. بدت كأنها استعذبت هذه العلاقة .. وهى ليست محترفة
مثل «ارنبه» رغم تقارب عمريهما فهى تصدق كريم المفلس حين يطلب منها
ان تأخذ ما تريد من مال فى جيبه الخار .. فتتردد وتنصرف .. ثم تنتظره
على السلم بعد اسابيع من اجل ان تنام فوق سريره ..

والنساء فى هذه الرواية بجميع اعمارهن ، عدا ام عرفى ، يسلكن
سلوكا رديئا وفاحشا ، ابتداء بـ «سعاد» التى تتجسس على ابيها من اجل
هيكل ، وتنقل له الاخبار اولا بأول وتنتهى علاقتهما بمجرد ان تؤدى وطرها
المرتبط بمصلحة هيكل .. اما أصغر النساء وهى الطفلة التى يراها جالسة
تتظر اليه وكأنها توده ان يخطفها، فهى ليست فى نظره «طفلة» بل انثى
مستعدة ان تهرب مع فارسها رغم انها فى الثامنة ..

أما النموذج الوحيد البريء ، النقى ، فهى ام عرفى العجوز ..
المجنونة التى تعيش من خلال عقلها المفقود فى جو من الفنتازيا الوردية ،
والحلم اللزوردى ، الذى يذهب بها بعيداً ، وهى تتخيل نفسها بملابسها
الرتبة أميرة أحلام جاءت من زمن بعيد ، الى زمن الصبا فى أحد مشاهد
الرواية الاكثر تأثيراً فى النفوس .

(١)

بدا النهار معلنا عن قيظ شديد بشكل ، لم يسبق له مثيل.

أحس الشرطى الذى استلم نوبته قبل قليل عند مفترق الطرق الأكثر حيوية فى المدينة، بأنه فريسة لسراب يحيط بعينه ، كان العرق يسبح فوق وجهه العبوس مما جعله أشبه بناثحة وسط جنازة، كان ذلك بالتأكيد سببا لمتاعبه الظاهرة، دعك عينيه مرات عديدة، وكأنه يأمل فى رؤية أكثر وضوحا من رؤيته الخائبة، ولكن هذه المحاولة البسيطة لم تحقق أى نتائج. هنا أخرج من جيبه منديله ذا المربعات الحمراء والبيضاء، والمصنوع من قماش خشن بادی القذارة، وجفف وجهه بكل حمية. اشرفت ، للحظة قصيرة، رؤيته للعالم، فأولى عينيه ناحية السراب مما صدمه، لأن ما رآه - باعتبار أن عناصر السراب تحدد رؤيته - كان شحاذا. إنه أجمل شحاذا رآه منذ أمد طويل. كان يتخذ ركنا فى عمارة فخمة ذات طراز جميل من البناء الحديث ، فضلا عن أن فى هذه العمارة يوجد بنك ومحل جواهر. أى أن هذه المعالم الميتافيزيقية تتطلب الحماية ، بون هواة ، من مثل هذا الوغد. أعاد المنديل إلى جيبه، وظل يرمش طويلا بعينه. حتى لا يفقد رؤيته الجديدة. توجه الشرطى يمينا نحو هذا الوقح، الذى بدت على ملامحه سمات المجرمين. لقد صدرت الأوامر منذ شهر بأنه يجب أن تتخلص المدينة من هؤلاء الملاعين الأوباش الذين يعيشون فى أقخم الأماكن كالنمل فوق قطعة عسلية. إنه هناك وعليه أن يعرف أوامر المحافظ الجديد العديدة - وهو رجل معروف بمبادراته الجريئة -

والأكثر صعوبة عند التنفيذ. كان طموح المحافظ الجديد هو تطهير الشوارع وحمايتها من كل ما يمكن أن يمس شرفها - أنه يتكلم عن الشوارع كأنها شخصيات حية - وأيضاً، من بعض الداعرين والباعة المتجولين أمام شرفات المقاهى. وجامعى أعقاب السجائر وخبثاء آخرين أقل أهمية. لقد أعلن حملته ضد الشحاذين، ذلك الجنس المسالم والمتغفل بشدة فى الأرض. الذى لم ينجح أى من الغزاة قبله فى أن يجتثهم. وكأنه أراد بذلك أن يخلص الصحراء من رمالها.

وبصفته موظف ينتمى لدولة قوية. تقدم الشرطى نحو الشحاذ (بدت الملامح المتجهمة لهذا الأخير شاهداً على حالته بشكل يثير الغيظ)، وبدأ فى اتباع قواعده المألوفة. لكن الشحاذ لم يتصرف أبداً حسب ماسمعه من أسباب، فهو شبه ميت. إنه عجوز ذابل بشكل بشع، ذو لحية رمادية كست كل وجهه تقريباً. الذى اختفى تحت عمامته البالية. وبدت عيناه مغلفتين، واكتست حوافها بهالات سوداء عريضة. مما أضفى عليه ملامح مبهمة وغامضة. انها الملامح المألوفة التى يمكن ملاحظتها فى أى شحاذ. بل أكثر. كان يرتدى اسماً متعددة الألوان ذات أشكال بالغة البهرجة. والتى تناسب بهلواناً أكثر من شخص على شاكلته. هذا العجوز المنحرف. النازح من أصل منحط، يبدو غارقاً فى نوم بليد، لم يبد عليه قط أنه قد إنزعج من تلك الضوضاء الهائجة التى أصدرتها المركبات العديدة القادمة من الطريق الى المفترق. وراح الشرطى، وهو يطلق قذائف الشتائم والسباب، يركل الرجل بقدمه مرة، ثم ركلة مرة ثانية كى يهرول جارياً. وأمام هذا الجمود المستفز. استعد أن يكيل له الركلة الثالثة. هنا رأى الشحاذ يتجاوز مكانه ويتهاوى أرضاً. ويتصرف بشكل مزرى كأنه بلا حياة، مرت لحظة تصور فيها الشرطى أنه قد قتله فاستبد به رعب، وانتابه احساس يفقد الاتزان. فالشحاذ قد مات، على الأرجح. أصابه الحادث بالنفوسخ، فعليه أن يجعله على قيد الحياة. انحنى نحو العجوز، وأطرق على «عمته». ثم بدأ يهزه بطريقة جامدة ويكل وحشية، كأنه يود أن يهبه الحياة. بدا من الصعب ادراك هذا الموقف الغبى، فجأة شوهدت رأس الشحاذ

العجوز تتخلص من رقبته بسهولة كأن ساحرا امسكها وظلت ملتصقة بالعمة. لم يتوقف الشرطى عن هزه فى الفراغ كأنه نصب تنكارى يدمى. أطلقت الجماهير، التى تجمعت منذ قليل حول بطلى هذا المشهد، صرخة مرعبة .. واحتجت على هذا الامتحان بإطلاق شتائم مقذمة موجهة الى الشرطى. الذى بدأ وكأته فقد سيطرته على نفسه، راح ينظر الى جموع الصارخين الذين يعاملونه كقاتل. وكأته شخص ابتلى بتشنج فى معدته. كان يلزمه بعض الوقت قبل أن يسترد انفاسه فى هذا الصباح الدامى.

لم يأخذ فى حساباته أن فى الأمر خدعة. لانه تعامل مع الشحاذ ككائن من لحم ودم وليس دمية صممها فنان واع راح يعرض فنه فى هذه الناحية الراقية وفى نيته أن يحقر من شأن الشرطة، لم يقلل هذا الاكتشاف من غضب الناس. بل زاد من حدته. راحت الجماهير تضحك ساخرة ومستهزئة من هذا الشرطى المنحوس الذى وقع تحت هول المفاجأة. بدأ الجمع السعيد وقد اخترقه النصابون كأنهم رعوس نبال، راح البأس يلتقط أنفاسه المتهدجة، فأخذ يطلق بصفارته سلسلة من النداءات الحادة، مستدعيا زملاءه الشجعان من كل ركن. ولكن هذه النداءات ظلت بلا صدى.

تفرق الجميع، بعد أن نالوا من السعادة ما يكفيهم للنهار بطوله. توجه كل منهم نحو هدفه وهو يعلق على الحادث بطريقته. دائما بنفس الروح اللئيمة التى يمكنها إثارة الأوباش وهى ترى ممثل السلطة وقد أصابته محنة.

(٢)

على مسافة كيلو متر واحد، وفي غرفة تقع فوق سطح عمارة تتكون من ستة أدوار تطل على البحر. كان الشاب كريم، مؤلف هذه الملهاة، أبعاد مايكون عن الشعور بالتفوق تجاه هذا الموقف الصادر من سلطات المحافظ. انه لايفكر فى هذا. فهو الآن ممدد فوق سريره عاريا حتى الجذع وقد انشغلت أصابعه بقصر، خصلة من شعره المتساقط على جبينه. انه يتذكر ببلادة، كسلطان أصابه السأم يسخر من الثروة والمتعة، فيترك كل شىء، ويترك نفسه لهذا السأم الرخو، بدأ كأنه يتذوق متعة شهوانية وهو يتأمل خلية الليل التى وقفت ترتدى ملابسها وسط الغرفة. اكتست شفاته بابتسامة دامت للحظات. انه يحب امتلاك غانيات نوات مؤخرات متموجة مثيرة. تتأرجح أمام عينيه من أجل إثارة متعته الخاصة، لايميل للمخلوقات البائسات (التقطها بالامس فى الشارع) لم بيد أن سحرها المتواضع يخفى وراءه أى غموض. هذه البهجة البسيطة التى حاول أن يخلقها بموقفه الضعيف والحساس، أخفت حالة من التوتر الشديد، شعر بها منذ أن استيقظ. وكأنه على نفس الحال دائما. يتصرف كريم هكذا يوما كى ينجح فيما يخططه لاكتساب ود عشيقاته العابرات، فان نجاح هذا التخطيط - أو بعضه - لايتربك أبداً فرصة للشفقة ولا لخفقان القلوب. لقد اقتربت الآن اللحظة التى عليه أن يكشف فيها لعبته.

لم يكن الشاب كريم فى أحسن حالاته، ورغم أنه متعدد التجارب فانه انسان قليل الحظ. يعرف هذه العاهرة الصغيرة التى صحبتها الى بيته بعد أن

وضع الشحاذ المزيف عند مفترق الطرق، لن تثير أى متاعب، فهي لا تبدو فتاة فضائح. حتى لو أغضبها، لكن هذا لا يهم كريم. فليست لديه النية فى أن يراها مرة أخرى. ثم أن الفشل المتوقع للمهاته لا يقلقه الا بشكل جزئى. فالامور تسير بطريقة أو بأخرى، وما يوده حقا هو التخلص منها على وجه السرعة. بدأت الطريقة البطيئة التى ترتدى بها ملابسها فى اغاظته. تعجل أن يراها تذهب وأن يبقى وحده. فقد كفت الفتاة عن إثارتة. هناك حوادث أكثر عنفا وغرابة - مما يحدث عادة - عليها أن تظهر فوق سطح الارض . وهو يريد أن يجرب طعم الوحدة، أو يكون فى صحبة زملاء يمكن أن يفهمهم. لقد شارك امرأة المتعة، انها تتسم برقة مما لا تتناسب معه، ان هؤلاء الاناث بالتأكيد خلقن لهذا النوع من المزاج الكامن فى درب الشيطان. انهن لا يستطعن قط إدراك القيمة الحقيقية لكل غبائات الطبيعة للعين ، على سبيل المثال، فيما يتعلق بشخص مهم كالوزير. فإنهن يبدون جادات فى كافة الأمور الهزلية الخاصة بطغاة السلطة. وهذه مثل الأخريات، فلم يعد لكريم مايقوله لها.

لم يكف عن تأملها، وهى ترتدى ملابسها، خصها بابتسامته كأنه سلطان أصابه السأم، فالفتاة الآن ترتدى جوربها، ويبس وجهها المشرب. وعنقها الطويل، ثار كريم فى صمت، وبدا له أنها تنظر اليه بنوع من العتاب. هل تشك فى شىء؟ أخيرا ارتدت فستانها وبدت متأهبة.

لقد حانت لحظة المكاشفة، اكتسى كريم بمظهر يليق بسيد كريم اعتاد السخاء. وكأنه ينزه نفسه عن أى مساومة، وهو يقول:

- عزيزتى زوزو! قبل أن تذهبي، مدى يدك فى جيب سترتى وخذى ماتريدين.

ظلت الفتاة بلا حركة. لعلها تبحث عن السترة. ولكنها سرعان ما أخفضت عينها وكأن حالة من الخجل أصابتها. انها فتاة صغيرة، ذات وجه طفولى، وملامح مهيبة ومؤثرة. أدرك بلا أى معاناة وبأسلوبها المؤثر، أنها مستجدة فى مهنتها. ترتدى فستانا من القطن المطبوع . ويتحفظها المتواضع ومساحيقها

الخفيفة، بدت أشبه بتلميذة منها كغانية. بدت لها مغامراتها مثيرة للحنن، فبالامس هربت من شرطة المحافظ عندما التقى بها كريم وبعدها - متبعا أسلوبيه المتخايل المألوف - لقضاء الليلة فى شفته، حقا إن كريم قد كسب بهذا النداء الانيق رضاها. وكأنه يعطيها الامتياز بأن يصحبها الى بيته. تركت الفتاة نفسها لهذا الاغراء. وهى التى لم يكن لديها أى خيار.

ظلت صامتة مترددة. إنها لحظة مثيرة للشفقة. كانت سترة كريم معلقة فوق طرف مقعد على مسافة خطوات من الفتاة، لكن لسوء الحظ فإن الجيوب تقريبا فارغة. فالتقود التى بها لاتكفى لإطعام عصفور، ولا مخلوق ضامر. راح كريم يتأمل الفتاة، وقد أصبح فريسة لشك يتنامى كل ثانية أو كل لحظة وراء أخرى. فكيف ستصرف؟ هل ستقترب من المقعد وتفتش جيوب السترة؟ لم تجرؤ الغانية أن تنطق بكلمة! لم يعاملها كأنها أميرة! ألم يكن عليها أن تصدق المشاعر السامية التى ظل يعاملها بها طوال ليلة حب لاتنتهى. تذكر كريم تأوهاتنا النارية المليئة بالمغالاة لدرجة جعلته يطلب منها الزواج، لم يدرك أن شيئا ما يعتمل فيها. هل تكدرت مشاعرها الآن وتبعا لحركاتها السافلة يمكنها أن تهدم نموذجا مثاليا بدا لتوه؟ لاشك أن هذا سيكون أمرا غيبيا بالنسبة لها.

ساد الصمت الرهيب. استعد كريم لفتح فمه ليقول لها بعض الكلمات. حاول أن ينقذ الموقف بوسائل أخرى، إلا أن الفتاة تكلمت أخيرا:
- أه. ! أشكرك لاداع.

لقد كسب الرهان. فالآن يمكن لكريم أن يلج بلا مخاطرة. مدد جسمه. وغمس رأسه فى الوسادة ثم تتأعب فى نشوة:

- لكن أنا أصر. هيا، خذى ماتودين. وإلا غضبت.

قالت مرة أخرى. . الآن لست فى حاجة لشيء.

بدا كريم مغتاظا لهذا الرفض. وانتابته حساسية:

- زوزو. انت تؤلينينى. أعتقد أننا لسنا بغرباء عن بعض. فكل ما معى لك،

الظاهر أنك لم تحببىنى؟

اعتذرت الفتاة كأنها قد تنبهت للخطأ الذى ارتكبته تجاه الشاب الصغير. -
لا أريد أن أهينك. لكن من المستحيل أن أقبل نقودك، فقد كنت لطيفا معى.
أجاب كريم الذى نجحت كلماته الاخيرة فى تنفيذ خطته:
- بكل بساطة، فالحب هو الذى جعلنى اتصرف هكذا. لا أريد أن أجبرك،
تصرفى كما تشائين فأنت فى بيتك. فأنا اعتبرك كزوجتى.

ارتسمت عليها ابتسامة حزينة، ربما بسبب تضخم هذه الاكثوية وربما
لأنها أحست باستحالة أن تكون زوجته. وبدون أن تنطق بكلمة. امسكت حقيبة
يدها التى كانت فوق المائدة. وقررت أن تنصرف، لقد نجح كريم فى أن يجعلها
تحس أنها شابة محترمة، وإلى حد ما تلاشى مظهرها الضائع. يمكن أن تكون
ابتسامتها متقلبة. فهى المرة الاولى التى تنظر إليه بعد ليلة الحب الطويلة ليس
عبر ستار الرغبة. ولكن كمخلوق آدمى مطارد، لا مأوى له. هذه المعاينة جعلته من
الصعب أن ينسى موقفه كسلطان متوج، يحب الغانيات ذوات المؤخرات الرخوات
والشهوانية غير البادية .

لم يبق الآن فى الغرفة سوى مشهد متوتر وحقيقى. فيلا شك، فهذه الفتاة
تحفى بداخلها مأساة. لم ينتظر كريم هذا الهجوم اللئيم من القدر. ففأ فعله بدا
له أمرا وحشيا. تساعل. «ياله من أمر محزن. فما أنذا فريسة للندم».
حاول أن يهرب من هذا الضعف، لكن الشفقة التى أحسها بدأت تتعمق فى
احشائه. من الضرورى أن يفعل شيئا ما لحساب الفتاة التى أصبحت مفروضة
عليه. عليه أن يساعدها بأى طريقة، وألا يتركها ترحل هكذا. لكن كيف ؟

استند على كوعه، وألقى نظرة مليئة بالأمل على سترته. كأنه يفكر فى
اكتشاف كنز منسى داخل الجيوب، وفى اضطرابه انتظر حدوث معجزة. فكر
بسرعة فى كل ما يمكنه أن يقدمه لها بعيدا عن النقود. كى يبرهن لها عن رفته.
وأخيرا. اعتقد أنه وجده بكل بساطة. سوف يسألها عن اسمها. ف «زوزو» هو
الاسم الذى أعطاه كريم لها اثناء كل غزوات الليل. ولأسباب تسهيلية. وأيضا حتى
لا يحتفظ منها بأى ذكرى محددة. حسنا. هذه الفتاة تتصرف بشكل مختلف. كان
عليه أن يبكى عندما انتابته الفكرة انها تعمدت ألا يعرف اسمها. فجأة شكلت

معرفة هذا الاسم بالنسبة له غموضا بالغ الأهمية.

سأل برقة متناهية فى صوته

- ما اسمك ؟

ترددت قبل أن ترد. أحسنت أنها قد صُدمت بهذا الاهتمام المفاجيء، قالت.

- اسمى قمر.

- حسنا يا قمر ، أنا ممنون لمعرفةك. مرى على قريبا. سوف أعتد عليك.

قالت والفرحة تشع فى عينيها: حقا ؟ ألن أزعجك ؟

- أبدا. على العكس. فأنت هنا كأنتك فى بيتك. ألم أخبرك بذلك ؟

- كم أنا سعيدة للغاية . سأذهب الآن.

كان عليه أن يقوم. ويذهب إليها ويقبلها. ولكن كريم تردد أن يتورط أكثر فى هذه المغامرة، فهذه الفتاة قد حطمت قلبه قليلا. ويمكنها أن تجعله مهووسا. لم يتحرك . قالت وهو لا يزال نائما:

- سلام عليكم .

وقبل أن ترحل. انتابها احساس انساني نادر كى تشكره على الليلة التى قضتها تحت سقفه. لدرجة اعتقد عند سماعها أنها بالغة الشرف والكرم.

تخيل كريم أنها قد خمنت، وهى فى حيرة، أن كلماتها الخائرة تقطر سخرية بشكل بشع. ولكن هذا غير محتمل بالمره. فكل شىء فى داخل الفتاة الصغيرة يتنفس بجلاء وشرف. أحس كريم بالخجل لأنه أفسد طهارتها، استبد به الندم فقد تملكته على طريقته حتى الاعماق، ووعى لذلك جيدا.

فتحت قمر الباب وظهر السطح الغارق فى الشمس. انفتح الباب الى داخل الحجرة. قال كريم:

- دعى الباب مفتوحا.

وبينما هو يسمع الباب الخارجى ينغلق على الفتاة، أحس كريم بأنه يتخلص من عبء ثقيل. أخيرا يمكنه أن يتنفس على راحته قفز من السرير. ثم راح يضيق حبل سروال بيجامته. وخرج الى السطح، انه يسكن هذه الغرفة منذ حوالى

اسبوع حيث يتمتع بمنظر البحر الرائع، انه يختلف تماما عن مسكنه القديم المظلم الذى كان بلا هواء ، والذى يقع فى أكواخ الأحياء الفقيرة. يستيقظ كل صباح تتنابه مشاعر الفرحة العارمة . وأول شىء يفعله هو الخروج الى السطح، كى يتأمل المنظر الذى يصيبه بمشاعر متميزة. فهو لم يشيع من مثل هذه الاطروفة. حتى قراءة الصحيفة التى تعتبر حتى الآن العنصر الاساسى لمتعته - حول وقائع عالم خصب ملئ بكل أنواع الجنون - أصبحت بعد هذه الدورة من الأمور المألوفة. وفى طابقه السادس يبدو كأنه مكتشف فى أعالي الجبال ، أطل كريم على المدينة المتهالكة الميانى. حيث تزدهر حشود الأغنياء والأوغاد. هذا المنظر العام لمجتمع ينحاز أكثر للصوص الدمويين الذين يسببون له معاناة لا حدود لها. فضلا أنه يعتبر أن مسكنه الجديد يجعله أشبه بمراقب حيث يمكن لمزاجه أن ينشرح .

استند على حاجز الطوب الاحمر الذى يحف السطح وتأمل البحر .. حتى تلك السحب البعيدة التى تسد الافق. كان البحر مسطحا ولامعا كالمرآة. وعلى يمينه ويساره تمدت المدينة. وهى ترسم بعماراتها الحديثة ذات الألوان الواضحة، الصورة الخادعة لمدينة مزدهرة. لايمكن للقادم من عرض البحر، أن يشك أن خلف هذه الواجهة الشديدة اللمعان تقع الأحياء الشعبية باكواخها القذرة وقمامتها الوفيرة. أحس كريم بحرارة الشمس فوق جذعه العارى، فتنفس بعمق. ثم فرد قامته. ونظر أسفله الى بقايا الكورنيش المسفلت الذى يمتد على الشاطئ بطول عدة كيلو مترات ، انه طريق واسع مزنوج. رصيف مصنوع للمتزهين الذين يأتون فى المساء باحثين عن نسيمات البحر. وقد طلى طبقة من الجبس، تعبر سيارات عديدة قادمة من دروب متشابهة يراها من أعلى، أشبه بالعباب ميكانيكية. وأحيانا تتجسد سعادة كريم عندما يبدو أحيانا حوذى نائم فى عربته الحنطور كأنه ألوية بشرية فى هذه المطاردة الجهنمية نحو العدم. لكن من النادر أن نرى انسانا فى راحة. فالشرطة تطارد الكسالى والعاطلين. تعاملهم كمجرمين، إنها الحضارة، طراز من الحياة السهلة الطيبة، عليها أن تختفى. ففوق الرصيف المخصص للمتزهين. يمشى بعض المارة المتعجلين للوصول الى حيث لا يعلم. يتحركون بخطى سريعة. هناك شىء من التغيير فى المنظر. فهو لم يلحظ أى أثر لصعلوك نائم فى الشمس ، ولا أى جسد متمدد أو حتى منحنى فوق الارض . لقد أصبحت

الشحاذاة عملا سرىا . أين إذن سيقف الشحاذاون ؟ يمكنهم أن يعملوا الآن فى أحد المصانع.

يا للحنن ! فان غياب الشحاذاين من طريق الكورنيش دليل عصر جديد. لقد نجح المحافظ الجاهل، بأفكاره العبثية، فى تغيير المظهر الأساسى للمدينة. تساعل كريم عمُ أصاب الدمية التى وضعها بالأمس فى وسط الحى الإفرنجى. هل اكتشفها أحد ؟ أحس بالأسف أنه لم يستطع أن يحضر لحظة قبض الشرطى على الشحاذا المزيف. لقد كانت تلك فرصة للمزاح. هل يمكنه أن يثير بعض الصدى فى الصحافة. ذلك ليس مؤكدا. فكل الصحف فى خدمة المحافظ. ولا تجرؤ أبدا على نشر خبر تجعل منه سخرية للأطفال الصغار. لا يهتم. فالمحافظ سوف يعلم بهذه المحاولة التى تحولت الى ظاهرة سخيفة. فأرأسه المنفرجة الزاوية سوف تنفجر . لن ينتظر تأكيدا ليكون محل هجوم بطريقة غير عملية. إنه سعيد حين يقبض على بعض أعضاء الحزب الثورى السرى الذى سبب لسنوات بعض المتاعب للمحافظ الذى فى السلطة. والذى عليه التخلص من كل الدعاية المضادة لمصالحه. لم يعرف سوى نوع واحدٍ من الأفكار المدمرة: أفراد متشددين فى حقدهم. يمجنون أعمالهم. ومستعدين أن يموتوا من أجل سيادة القانون والعدالة ، باختصار فإن الناس الذين يأخذون الامر بجدية مثله. يمكنهم أن يعملوا على تفريخ المدينة بنوع مجهول من الثوار، ثوار ماركين أصحاب مزاج عال. ويعتبرونه أشبه بدمية – هو وأمثاله فى أنحاء العالم – من أجل ألا تكون أفعاله وحركاته سوى تشنجات عصبية وزفرات بدت لكريم أشبه بغباءات كبيرة. وجد نفسه مصابا بحالة من العصيان لايعرف أى أسلوب يسلك. رغم أن الشحاذا المزيف صنع ملهاة لاتنقصها الدعاية. ليست سوى أمر تافه مقارنة بالآلة التى لا حد لها من الخبل. كان كريم يعرف أن صديقه ورفيقه الحميم «هيكل» يتمتع بالدقة والكفاءة وأنه يمكنه أن يحطم سلطة المحافظ للأبد.

ظل هيكل شخصا غامضا فيما يتعلق بتفاصيل هذه المؤامرة الساخرة دافعه فى ذلك هو اقتراب الكفاح الشرى الذى عزم هيكل أن يعلنه. لقد قرر هيكل أن يقابل خالد عمر بعد أن كلفه برسالة لهذا الاخير .. كى يحدد له موعدا هذا

المساء. هذا الموعد يعنى أن «هيكل» توصل الى خطة هجومية. وأنه فى حاجة الى دعم مادى كى يجعلها قابلة للتنفيذ. فخالد عمر هو الشخص الذى يمكن للنقود ورغد العيش أن يجلبا له فكرة خفية. إذن، ففى هذا المساء سيرعرض هيكل مشروعه، وسيتم اللقاء فى مقهى بالحى الاقرنجى. أصر «هيكل» أن يقابل التاجر وجها لوجه. - بلا شك - فهو يريد أن يقلل من نفوذه. كان كريم واثقا من نتيجة هذا اللقاء، فسوف يقع خالد عمر بالتاكيد تحت سحر هيكل الذى لايقاوم، فهيكلم شخص يختلف عن كل الشخصيات التى قابلها فى حياته.

لايزال الوقت مبكرا للذهاب لمقابلة التاجر. فهو لا يذهب الى مكتبه إلا فى ساعة متأخرة من النهار، وبينما هو ينتظر، انحنى كريم على جدار السطح، وراح يفكر فى المرارة المتزايدة التى أصابته هو وأصدقائه بسبب المحافظ. فجأة هبت عليه ذكرى العاهرة الصغيرة وكأنها قد ولدت قصة حب كبيرة، استطاعت أن تملكه. وعد نفسه أنه لو رآها مرة أخرى فى الليلة القادمة. فسوف يعطيها بعض النقود وهدية ما. وما ان لمعت هذه الفكرة المؤثرة حتى عاد الى غرفته وتوجه نحو ركن تتكوم فيه طائرات ورقية من كافة المقاسات والألوان. بعضها لم يكتمل تصنيعه بعد. انها هواية كريم المفضلة، منذ عدة أشهر، وهو يصنع طائرات ورقية يبيعهها الى تاجر حلوى وأخشاب شيش - والذى يبيعهها بپوره الى زبائنه الأطفال - فى حانوته بالشارع المجاور. فى زمن الطائرات الحقيقية، وجد كريم أنه من الرائع أن يرد بسرعه على تقدم العالم المنحوس المصاب بالهذيان لكل ماهو ألى. فبدأ يصنع طائرات ورقية، كالعاب رائعة وتافهة، فيهلل بقرحة غامرة حين يرى فى السماء هذه الأشياء الخفيفة الهادئة التى تسخر من المركبات الثقيلة الطائرة، والآلات الضخمة التى تفتقد الشاعرية.

تأمل الركام لحظة. ثم أخرج واحدة، لاتزال فى حالة هيكلية. أفرع من البوص المقصوص مثبت فى وسطها بواسطة خيوط تصنيع طائرة ورقية عملاقة، أمسك مقصا، وبعض لفائف من الأوراق الملونة، وطبق فى داخله تمتزج المياه بالدقيق كى يحصل على لصق ثابت. عاد الى السطح ومعه العديد من الأدوات،

ووضع فوق الأرض الصلبة هيكل الطائرة الورقية. انحنى. وبدأ فى العمل بنفس الجدية والانهماك كأنه عالم يبنى صاروخا يستطيع السفر الى القمر.

وبينما هو غارق فى عمله، لم ينتبه كريم الى تطفل شخص فوق السطح. وقف وقد بدا مثيرا للرتاء أمام السلم، يحاول بلا جدوى أن يلتقط أنفاسه. يحمل هذا الشخص الشاحب واللاهث، الذى فى الخمسينات من عمره ملفا تحت ذراعه ويمسك بيده مظلة مغلقة، استند عليها وهو يترنح. راح يلهث للحظة، ثم هزته دفعة من السعال فشلت فى خنقه مرات عديدة، رفع كريم رأسه على أثر سماعه السعال الأجش وراح ينظر فى غباء وخلسة. فهذا الرجل ينظر اليه وكأنه وجد شخصا يعرفه وسط حشد من الناس، نون أن يسبب له أى متعة بالمرة.

- هل أنت كريم ؟

- أجل . أنا . ماذا هناك ؟

قال الرجل : شرطة . أنا مكلف بمهمة خاصة بك.

أوماً كريم بحركة واحدة نون أن يبعد عينيه عن الرجل ، إنه شرطى حقيقى فى هذا القبط يرتدى ملابس وكأته وسط برودة شتاء قارس : بدلة صوفية سميكة داكنة ، وتلفيعة من الصوف ملفوفة حول الرقبة. بدا وجهه النحيف مهيبا ومهموما، ولكنه غير جاف. يكسوه نوع من التجاعيد يمكن أن تميزها لدى بعض المرضى المحكوم عليهم بالموت قبل الأوان . بدا على شفا الانهيار . فقد شكلت الألوان الستة التى اضطر أن يصعدها خطرا حقيقيا بالنسبة لسنة. لقد منعه الشمس العمياء التى غمرت السطح من الرؤية جيدا .. فتح مظلته، وتحت ظلها تصفح الشاب طويلا. هذا الموقف المضحك كان له الأثر المبهج على كريم ، فتلاشت مخاوفه ثم تقدم نحو الشرطى . وسأله:

- فيم تتعلق هذه المهمة ؟

- هل يمكن أن أدخل غرفتك، أود أن أجلس فلدئى ما أقوله.

قال كريم : إنه لشرف . تفضل.

أغلق الشرطى مظلته ودخل الغرفة يتبعه كريم وهو يتساعل عن الاسباب

التي وراء هذه المهمة، فمنذ زمن طويل لم يتعامل مع الشرطة. لعلمهم عرفوا بسرعة أنه صاحب الشحاذ المزيف، إنه أمر غير قابل للنقاش. ترك نفسه للقدر. إنه لأمر معقول، بدا مظهر الشرطي المصاب بالربو وداء الصدر كأنه في حالة أفضل.

لم يفقد كريم السلوك المهذب :

- هل تفضل سعادتك وتجلس ! هل أجرؤ أن اعتذر لك عن فوضى المكان.
كدت أن أرتبه.

- لاتهتم . فليست هذه زيارة ضيافة.

جلس الشرطي، وهو لا يزال يلهث. ولكن بشكل ضعيف، أمسك كريم سترته، وراح يتذكر أنه كان عليه أن يتصرف بوقار أمام ممثل القانون. هل عليه أن يموت ويختنق بالربو، فمنذ أن تعرف على هيكل. أو منذ أن بدت له الحياة في ثوب ساخر مليئة بالغضب الصاخب. اعتزل كريم وأقام في بيته بكل كرامة بعيدا عن رعاع البشر الذين تمسكو بقيود السلطة. عليه أن يتصرف كغبي، وأن يبدو أكثر غياب منهم. أنها الطريقة الوحيدة لانتبازهم. لقد أخبره أن الكرامة ليس لها ثمن سوى بين البشر الاسوياء الذين يكونون فيما بينهم مشاعر احترام متبادلة. ويعلمون أن إحتفاء المرء بكرامته أمام شرطي أو ممثل للسلطة، لايعنى أبدا شيئا. هكذا حدثه هيكل وهو يحاول أن يحتفظ بكرامته أمام كلب مسعور. فالسلوك الذكي الوحيد أمام كلب مسعور. هو الهرب. أما بالنسبة للعديد من البشر، في هذا العالم المتسع، فعليهم أن يتصرفوا بكرامة، لأنهم مختلفون.

زرد كريم سترته، ثم جلس وقال بمظهر شخص يتوقع حديثا على جانب كبير من الأهمية :

- هأنأ أسمعك.

فتح الشرطى الغربى ملفه، وسحب ورقة، وبدا كأنه يتفحصها .

- هل تسكن هنا منذ وقت طويل ؟

- اسبوع تقريبا . كما ترى لقد أقمت هنا وأنوى تأنيث هذه الغرفة بطريقة حديثة. أنا فى إنتظار نجار ولكن لسوء الحظ، لقد ماتت زوجته لتوها، وتركنى هكذا. سوف أستدعى نجارا آخر.

أطلق الشرطى تهيدة، وهز رأسه. وكأن من الصعب عليه أن يهدم هذا الوهم الجميل، وقال.

- من الأفضل أن تهجر هذا المسكن.

- لماذا ؟

- لأنك لايمكنك أن تستمر فى السكن هنا. فهذا ممنوع.

- كيف ممنوع ؟

إنكمشت عينا الشرطى. ونظر الى كريم وكأنه سيبوح له بسر مرعب :

- هل تعرف ياعزيزى أن هذه العمارة تطل على طريق حيوى !

رغم أن هذا الاعلان قد أثار طبيعته الساخرة. فإن كريم ظل رابط الجأش لم ترتسم أى إبتسامة على وجهه. بل على العكس. بدا متأثرا بشدة لما سمعه. وبلهجة نادمة، لمواطن مهتم بشئون البلاد رد :

- الكورنيش طريق حيوى ! لم أكن أعرف، سعادتك ! بشرفى، لم أكن أعرف .

- حسنا، هأنأ أعرفك، إعرف أن الكورنيش طريق حيوى من الطراز الأول ويسلك هذا الطريق يوميا رجال سياسة، وسفراء الدول الأجنبية. وعسكريون مهمون.

قال كريم : حقا . ولكننى لا أدرى ما علاقتى بهذا ؟

- ألا ترى ذلك حقا ؟

- لا ، والله ! لا أرى. أحاول أن أجتهد ولا أعرف.

- إذن سأضطر أن أعلمك . فأنت رجل خطير.

- أنا ! ماذا يمكنني ؟

أضاف الشرطى : لا شىء الآن . لا يمنع أنك فى القائمة السوداء. ونحن

مهتمون بك. أليس كذلك ؟

- فعلا. ولا انكره. ولكن ذلك كان من سنوات، ابان الحكومة القديمة.

هز الشرطى رأسه من جديد . تظاهر أنه يمتص شفثيه . وكأن مثل هذه

الأمور أقل غباء. حقا، كم يتسم هؤلاء الثوار بسذاجة واضحة. قال :

- لو لم تكن تحب الحكومة القديمة. فلا يوجد سبب كى تحب الحكومة

الحالية. فنحن نعرف أصحاب الرعوس العنيدة من أمثالك.

أثارت هذه التصريحات الملعنة ضمينا دهشته، وأصابته بالصمت للحظة،

فلماذا يرد على هذا ؟ لم يترك نفسه لهذا الشرطى المسكين كى ينهكه بأموره

الخارقة. عليه إذن أن يمسك زمام الأمور.

أحتج بحسن نية :

- أى خطأ، سعادتك ! أنا لا أحب الحكومة ! يجب أن يكون المرء أعمى

حتى لا يجبها. أنظر الى. هل أنا أعمى ؟ أقول لك بكل بساطة أنتى أعتبر الحكومة

الحالية مثل أبى. أى دليل يمكن أن أقدمه لك لأؤكد احترامى لها ؟

- بالمناسبة . أين أبوك ؟

رد كريم : لقد مات ، فأنا يتيم.

ورغم أن هذه المحاولة بدت له يائسة، ورغم أنه يريد أن يكشف دوره ككائن

تائب. فإن كريم وجد نفسه على وشك البكاء. وضع جبهته بين يديه. وبدأ فى

النهضة وهو يجهد، ينطق بكلمات مكسورة بأنه قد جنى عليه بأسه وأحزانه منذ

طفولته الرقيقة. لكن هذا المجهود الذى بذله لم يقنع الشرطى تماما، بدأ مهزوزا.

فظل صامتا، منتظرا أن يخفف الألم الذى جاء فى غير وقته، ولكن كريم صدمه بضرية قدرية حين كلمه عن أمه المسكينة التى ماتت أثر اصابتها بمرض خطير (يبدو أنه كان «ربو») والذى وصف أعراضه كأنه طبيب متخصص.

وتبعاً لهذا الوصف، اكتست عينا الشرطى بظل من الحزن، وبدأت ملامحه تمتلئ بتعبيرات حزينة مكتئبة لقد ظل يمارس مهنته ثلاثين عاماً ولم يعد لديه ما يتعلمه عن كوارث القدر. لقد ألفت به شكوكه عن جدوى الأشياء فى الدرك الاسفل، فى مهنة يكون الجنون والقبح هما الفضيلتان الوحيدتان ، فضلا عن مشاعر انسانية عميقة تجمعهم مع اخوانه البشر. هذا الشاب يمكن أن يكون إبنة. فقد جرب المعاناة المزيفة والحقيقية :

- مم تعيش ؟ هل تعمل ؟

رد كريم : طبعاً. أنا صنايعى.

- ماذا تصنع ؟

- أصنع طائرات ورقية.

- أنت تسخر منى.

- كيف اجرؤ على ذلك، يا صاحب السعادة ! هذه هى الحقيقة خالصة.

ليس هذا شيئاً غريباً . سوف أريك نماذج مم أصنع.

وقام بكل حيوية واقترب من ركن الغرفة التى رتب فيها طائراته الورقية.

وأمسك اثنتين - واحدة بكل يد - ذاتا أشكال وألوان مختلفة ثم رفعهما عالياً، كى يمكن للشرطى أن يعجب بها :

- ها هى . أنظر الى هذه الطائرات الورقية . فأننا الذى صنعناها، لا يوجد

لها مثيل، حتى فى الخارج . لقد طلبت منى فى أنحاء العالم. وسوف أضطر قريباً الى طلب مساعدة.

تأمل الشرطى - الذى لم يشأ أن يصدق هذه القصة - الطائرتين الورقيتين التى لوح بهما أمام عينيه كأشياء خارجة لتوها من أحلام. ورغم رغبته أن يكتب محضراً مفصلاً. فإنه رأى استحالة أن يشير فيه إلى صناعة الطائرات الورقية

كعمل شريف. ومع ذلك تساعل عن هذه الطائرات. هناك بعض الناس يصنعونها. وهى ليست نتاج الطبيعة. ولكن كيف يبلغ رؤسائه أن ثوريا قديما، يملك روح التدمير انتهى أمره إلى هذا النوع من العمل. دون أن يثير أى شبهة؟ قال:

- ليس من الجدية أن أذكر هذا فى محضرى. وإلا بدوت كأنتى أسخر من السلطات.

- ومع ذلك، فليس هناك شىء غير ذلك، إنه عمل متواضع بالتأكيد. ولكنه يبعث البهجة فى قلوب الأطفال. آلاف الأطفال الذين يتسلون بهذه الطائرات الورقية. كيف يمكنك أن تقترب منى. سعادتك، وأن تجعلنى أهتم بأن أصنع بهجة الأطفال؟ ليس الأطفال سوى ابطال المستقبل. وأنا أعرف أنه بالنسبة لصول قديم فإن هذه الطائرات الورقية تعد من اعمال الطفولة. عندما نتعمق فى المشكلة، سنلاحظ أن الأطفال الذين يستخدمونها، ينشغلون فى هذه الرياضة السلمية، إنه عمل وطنى، وظاهرة اجتماعية صحية ستصنع منهم مواطنين صالحين قريبا. عليهم أن يحترموا القانون، لعلك أدركت بسهولة اننى أعمل لمصلحة الوطن.

هذه الخطبة الطويلة سببت الكثير من الألم للشرطى. فقد أدهشه هذا الشاب كثيرا. فلو لم يكن ثوريا، فهو على الأقل مجنون، فكر الشرطى فى محضره. فقد أدخله الشاب فى متاعب لا حصر لها. قال كريم بعد صمت: إذا سمحت لى..

- تفضل.

- هل لديك أطفال؟

ها هو يدخله فى مسائل خاصة. الآن، هل سوف يسأله ان كانت زوجته جميلة أم لا؟

- نعم، لدى أطفال. ليحفظك الله!

- أى أعمار يبلغون؟

- الكبير فى الثالثة عشرة

- يا للصدفة العجيبة ! هل تسمح لى أن اقدم له احدى الطائرات سيكون هذا بالنسبة لى مصدر شرف وفرحة.

قاوم الشرطة، ولكن بكل أدب، وبلا مباحاة.

- إذا لم أكن قد تجاوزت الحد ؟ فهذه محاولة لرشوة موظف سوف أسجل هذا فى محضرى.

هتف كريم : رشوة ! لتحطمنى السماء ! لقد أهنت سعادتك مشاعرى . صدقنى أنا أحب الاطفال كثيرا . لدرجة أننى عندما أرى أحدهم ، تتذرف الدموع من عينى . لا أفهم كيف يمكن أن تسمى هديتى رشوة لموظف، إنها بالنسبة لى شئ عزيز ، ومشاعر نبيلة ونقية . سوف أكون حزينا لو رفضت هديتى المتواضعة ومن جديد أوشك على البكاء .

وخضعت مشاعر الشرطى لاختبار قوى . فكل ما يتعلق بهذه القضية بدا مبهما ، بعيدا عن الروتين المألوف . فهل هذا الشاب مخلص ؟ لقد كاد الشرطى ان يقتنع بهذا . فلو كان واحدا من الثوار المتكابرين المتصلبين المتطرفين ما تكلم بهذه اللغة . وماذرف الدمع . انه واثق أنه لم يخدع . الغريب أنه يعرف لماذا سبب له الحزن ، ماذا سوف يصبح العالم لو شرع الثوار فى التوبة ، والمغفرة ؟ بدا له أن نوراً أضاء فى مكان ما .

وضع كريم احدى الطائرتين فوق الكومة وظل يمد الأخرى الى الشرطى فى توسل . وقد اكتسى وجهه بتعبير من المعاناة النفسية المثيرة للرتاء .

أصابته الطبيعة الرحيمة الشرطى بالحر . أحس أنه قد ارتكب حماقة وأنه انسان أقل تحضرا، عليه الا يرفض هدية مقدمة له فى مثل هذه الظروف .

ربما أن بساطة الهدية تدفعه الى قبولها . سعل وهو يجلى صوته :

- ليكن . اتفقنا ، ولكن سوف أخذ الصغيرة .

رد كريم : أنا فى خدمتك . فقد غسلت عارى .

وبينما يمد الشرطى ذراعه ، ، دعاه للاختيار ، وبعد لحظة من تردد

الشرطى . جاء اختياره على الطائرة الورقية الصفراء ، واضعا فى حسبانته مشكلة المواصلات . فقد رأى نفسه يجرجر هذه اللعبة الضخمة حتى منزله . لم يخف ارتياكه . قال كريم .

- بكل امتنان ، أمل أن يتسلى الأطفال جيدا .

قال الشرطى وهو يتجه نحو الباب : اشكرك باسمهم ، على الآن أن انهى محضرى . سوف يتم استدعاؤك قريبا .

رد كريم : لقد اسعدتتى زيارتك . صدقتى ، أنا ممتن كثيرا .

وخرج مع الشرطى الى السطح . ثم اصطحبه الى باب السلم . وهو يقدم له عشرات التحيات والانحناءات . وقد احتفظ بسلوكه الجاد والوقور لدقائق . ثم فجأة انطلق فى ضحكة مجالطة .

لم يستطع أن يوقف نفسه عن الضحك . فقد أصبح الكورنيش طريقا حيويا آه ايها الاقدار الانجاس ، انهم يملكون طريقا حيويا الآن . ياله من افتراض ! كل هذا كى يعلى من أهميته . وكى يجعله يترك المنزل لسبب مجنون ! لقد بلغ السيل الزبى ! انه على عجلة وعليه ان يرد على هذا التهديد . لن يترك نفسه تنفجر . ، ولن يعطيهم هذه المتعة . أولا . كان عليه ان يتصرف مع هذا الشرطى قبل ان يخط محضره . اعتقد كريم انه قد سيطر عليه تماما ، ولكنه لن يعرف أبدا كيف انتهى بأن وافق أن يأخذ الطائرة الورقية . فلماذا لا يوافق على شئ آخر ؟ قرر كريم أن ينقل كل الحكاية الى خالد عمر . وأن يساومه . فهو الوحيد لاسباب عديدة ، الذى يملك أدواته . يتصل بالشرطة أو برؤسائهم ويمكن لخالد عمر أن يقدم أحسن الرشاوى مغلفة للموظفين . جمع كريم عدة شغله وأعادها الى الحجرة . ثم ارتدى ملابسه على عجلة . فقد حان وقت زيارة التاجر . عندما وجد نفسه خارج المنزل . وقف يفكر لحظة وهو يتأمل الكورنيش بنظرات ماكرة ، واستبدت به رغبة عارمة ان يتبول على الطريق الحيوى .

(٣)

بدأ خالد عمر- وهو شخص أُمى - فى التجارة فى مكان ينهى فيه التجار عادة عملهم: السجن . حدث ذلك منذ بضع سنوات، لم يكن سوى رجل حاف، يقرصه الجوع. وينام على الرصيف. كان يعيش على النهب والتسول، ولكن العناية الإلهية ادخرت له مستقبلا زاهرا .. لقد قُبض عليه فى حالة تلبس وهو يسرق حافظة أحد المارة، وحُكم عليه بالسجن ثمانية عشر شهرا مع التنفيذ، هذه الظروف البائسة دفعت به الى الثروة. فخلف جدران السجن ولدت موهبته وأنطلقت. فتخلص من وساوس قلة الطعام، ولم يعد يشكو ندرة الرفاق أحببت روحه، لكنها ظلت متيقظة. ارتبط بمجموعة من الأشياء اتاحت له الفرصة. نظر حوله واندesh لكل هذه الظواهر الاقتصادية التى فرضت نفسها على مجتمع حى فى أنية مغلقة. فالطريق القذر الذى ادى به الى السجن قد مس شغاف قلبه ولكنه لم يشارك ابدا فيه. فراح يشتري بالأجل. ويبيع بسعر أعلى مما إشتري. أدهشته هذه العملية.. انها أول ربح فى حياته. لايبذل فيه مجهودا. وبعد وقت قصير أصبح مضاربا حذرا واكتشف أبعادا غريبة لقوانين العرض والطلب. وفى الأشهر الستة الأولى سيطر على كل المقدرات، فرض مسألة السعر كما يشاء فاستولى على كل أنواع المؤن. والسجائر، والمخدرات. وأحيانا النساء، والسجانين، والمجرمين. فارضا سلطته دون أى عجرفة . بمعنى أنه توصل أن يجعل السجن مصدرا للاقتصاد القومى.

وعند خروجه من السجن، كان ثريا يملك النقود. وسرعان ما ارتدى البديل. والشرايات، وقص شعره بما يناسب طربوشه. ثم أجر محلا. ودخل فى العديد من

العمليات القانونية - وعمليات أخرى ليست سوى بين بين - ولازمه حظ طيب، إنه الآن يملك عمارات عديدة، وأراضى واسعة فى المناطق الأكثر خصوبة. واستكمل عمله دون أن يبذل أى جهد، تمثلت كل أنشطته فى محادثات تليفونية مع ناس لم يرههم قط، ورغم نجاحه فقد احتفظ وراء ثرائه الخارجى واناقتة المنفرة بأسلوب رجل له نزواته، ولغته الشعبية. فلم تربطه مودة سوى مع المتشردين، ولم يكن يخرج إلا فى صحبة العاطلين الذين لا عمل لهم وأمامهم متسع من الوقت. وفتحت الطريقة التى كسب بها كل نقوده عينيه على خداع هذا العالم. وفهم أن ما حدث له لا يمكن أن يكون له مكان الا بين المجانين واللصوص.

كان مكتبه صورة لروحه الخشنة، يقع فى حارة من حى الجمرك، وكان قد تخلص من كل أوراقه القديمة ومكتبه الرخيصة وأشياء أخرى سخيفة من هذا النوع. المخصصة لجلب الأعمال والتى تعطيه مظهرا مهيبا. لم ير هناك سوى مائدة يضع عليها تليفونا من طراز عتيق. ومقعدين كبيرين من الخوص، وفى ركن، على الحائط توجد بعض الخزائن الخشبية المغطاة بالأترية.

عندما ظهر كريم، فى الظهيرة، فى مكتب خالد عمر. كان هذا يتكلم فى الهاتف، حيا زائرہ بيده الأخرى، وافهمه بحركة إيمائية أن محادثته تكاد أن تنتهى. جلس كريم فوق أحد المقاعد المصنوعة من الخوص وقد أعجب بالطريقة التى يتبعها خالد عمر فى أعماله فقد غاص فى مقعده الدوار، كان التاجر يستمع الى محدثه الذى لا يراه فيؤكد المحادثة. ويهز رأسه أو ينطق بكلمة جافة، وأحيانا يطلق تنهيدة كأنه يود أن يجعل الآخر يحس أنه قد ضحى بوقت ثمين من أجله، لم تكن هناك أى أوراق، ولا قلم فوق المائدة. فكل شىء مسجل فى الدماغ.

وضع خالد عمر السماعة. وغاص فى مقعده وانفجر فى ضحكة حادة بدت كأنها قادمة من امعائه، إنها ضحكة حيوان مبتهج، ضحكة بلا سبب، وتلقائية تماما: كيف حالك يا صديقى ؟ هل تعرف ماذا طلب منى هذا الشخص فى التليفون؟

قال كريم . لا .

- حسن، طلب أن أحضر له نمرا .

- نمر ؟ بالتأكيد أنه يريد أن يطلقه على حماته، إنها نكتة ظريفة.

- أبدأ، فالأمر بالغ الجدية.

- لم تخبرنى أن لديك نمرا للبيع.

- ولم لا . سوف أجد له واحدا .

وأمسك بيده - ذات الأصابع المرصعة بالخواتم - مبسم النرجيلة الضخمة المصنوعة من العنبر والموضوعة قريبا منه فوق الأرض ودسه فى شفتيه. ثم شد نفسا وأطلق من خياشيمه سحبا من الدخان الكثيف، وعلق :

- أنت تعرف، يا صديقى الشاب، أنه قد جاء على وقت كنت أبحث فيه عن كسرة خبز فلا أجدها. كنت أحس أن الخبز غير موجود إلا فى مخيلتى. وأن الخبازين كائنات اسطورية. وهأنا الآن أعرف أين أجد نمرا، أعرف أين يجب أن اتكلم فى التليفون كى يحضروا لى نمرا طليقا أو فى قفص. أليست هذه معجزة ؟
ومرة أخرى، انطلق ضاحكا. هتف كريم :

- أمر غريب ؟

قال عمر. انه أمر بسيط، انه يتعلق بالدخول فى نفس الدائرة. كل مايرغبه الانسان هو أن يمتلك كميات خيالية مخزنة فى مكان ما، ومحفوظة جيدا. هل رأيت أبدا أطنان الارز ؟ أنا لا. ومع ذلك بعث آلاف الاطنان. هذا هو غموض التجارة، لانرى شيئا. كل شيء يدور فى الكواليس، أحس أننى أبيع الريح، وهذا شيء يبعث على التسلية.

- أنت رجل مادى، يا أخ خالد ! أريد أن أقبلك ! عندما أفكر أننى لن أستطيع التعرف عليك !.

نظر خالد عمر الى زائرته بفرحة ظاهرة. فالصداقة التى جمعتها بهذا الشاب تعود الى اقامته فى السجن، لم يكن كريم قد تعدى العشرين فى تلك الآونة. فقد تم القبض عليه بصفته عضواً سياسياً خطيراً. وانحشر مع الخارجين

على القانون العام. وقد كان اتصاليهما الأول بالغ الصعوبة، فعندما علم تاجر المستقبل من كريم أنه موجود فى السجن لاسباب سياسية، لم يستطع أن يمنع نفسه من معاملته كغيبى مسكين. وأن يفهم كيف يمكن أن يفقد المرء حريته لادافع برىء أو لسبب سياسى. فحسب رؤيته فهذا غباء جميل، ومن ناحية أخرى، فلم يكن عليه سوى أن يقدم على سجنه، الذى خاطر من أجله بحريته بالتاكيد، ولكن هذا أمر غير ملموس قياسا الى حافظة مملوءة بالأوراق المالية. أيضا فإن شخصا من طراز كريم يبدو له مضحكا، فهؤلاء المساجين السياسيون ، يتصرفون كشهداء ويثيرون اشمئزازه، إنتابته احيانا مشاعر اخوية تجاه هذا الشاب المثالى. لذا ساعده طوال فترة اعتقاله.

– هل يمكن أن أقدم لك شيئا ؟ قهوة !

قال كريم :أجل سوف أتناول قهوة.

قام خالد عمر واستدار حول المكتب وذهب ليفتح النافذة، دخلت الضوضاء فجأة من الحارة حيث يوجد سوق للفاكهة والخضار عزت الغرفة صيحات الباعة الذين يمتدحون بضاعتهم، وهزتها كأنها زلزال، سيطر على صوته الأجش، صاح خالد موجها كلامه الى صاحب المقهى المقامة على الناحية الاخرى من الحارة :

– اثنان قهوة يا عاشور !

رد صدى الصوت فى المقهى : اثنان قهوة !

اغلق خالد عمر النافذة بسرعة، وعاد ليجلس خلف مكتبه. وقد بدا منتشيا داخليا، كأنه قد تذكر لتوه قصة غريبة .

– أهنتك على شحاذك المزيف. فقد كان انتفاضة حقيقية هذا الصباح عندما اكتشفتها الشرطة.

– أخبرنى : هل يتكلمون عنه فى المدينة ؟

– بدأت الفضيحة أولا بأن شرطيا قد كسر رقبة شحاذ عجوز، واغتتم الناس. الفرصة لكن الأمر سرعان ما انتهى حين فهم الناس الملهاة بدت الشرطة

مرتبكة. وطلبت من الصحف التزام الصمت ازاء هذا الحادث. تصورت أن بعض الشحائين الراغبين فى الاحتجاج على أوامر المحافظ قد دبروا هذا.

- ليتخيلوا ما يشاعون. فلم ننته من الضحك بعد. اسمع، لقد جئت كى أخبرك أنتى دبرت لك موعدا مع هيكل. سيكون هذا المساء. حوالى الثامنة فى شرفة مقهى «لوجلوب»، كلفنى أن أخبرك أنه سعيد بمعرفتك.

قال خالد عمر بصوت خائر ومرتعد قليلا : أنت تعرف أننى تمنيت هذا اللقاء منذ أمد طويل. فكل ماحدثتنى به عنه الهمنى مشاعر فياضة. أنا أحبه كأخ. وعليه أن يعرف أنه يمكنه أن يعتمد علىّ فى كل مايريد أن يفعله فثروتى الطائلة تحت أمره .

- لقد أخبرته بهذا. وهو يكن لك مشاعر أخوية. انه يعرفك أفضل مما أعرفك أنا. لقد كلمنى عنك يوما كرجل يملك قلبا كبيرا. كل هذا دون أن يراك. أنا متأكد أنه لن يخيب أمله.

- ماهى تصوراتك ؟ ألم يقل لك شيئا ؟

صرح كريم : لا ، اعتقد أنه يريد أن يكلمك عنها أولا ، فهو فى حاجة لمساعدتك، هذا المساء.. بلا شك سوف يضعك فى إطار خططه.

- هل ستستمر يوما فى إرسال خطابات القراء الى الصحف، انها فكرة شيطانية، وأنا مشدوه بها.

كان تملق الصحف فيما يتعلق بالمحافظ قد تجاوز كل ما يحدث حتى الآن فى إطار الحقارة والخسة. فبصوت الصحافة تغنى المدينة بأكملها فى مدح الجوع. ولا يسمع أحد يتكلم فى أى مكان عن مبادراتها أو عن رغبتها فى هزيمة الجوع، حتى مميزات الجنرال السابق قد صيغت بشكل واضح ، وكان المدينة ميدان معركة حقق فيه المحافظ نصرا حريبا بينا. هذا الموقف الذى نجح هيكل فى تفجييره. كانت الحيلة تتضمن متابعة الحركة ثم تجاوز غيابها لدى حاملى المباخر. بأن يرسل إناس من معارفه خطابات الى الصحف، مليئة بالتملق حول الأنشطة

الحكومية التي لا يتردد أحد إلا في نشرها . وقد آمنوا بأن كل هذا من أجل مجد اسيادهم.

قال كريم .

- ليس الآن . سوف نبدأ من أعلى مكان لمنع الصحف من نشر هذه الرسائل. فأخر حكايات قمنا بإرسالها كانت بلا صدق. يبدو أننا تجاوزنا الحد، هل تذكر ما كتبته بنفسى، وأنا أقارن بين المحافظ والاسكندر الاكبر.

- أذكر ذلك جيدا . فقد قرأته على. لقد كان خطابا شهيرا !

- حسنا، هذا الخطاب لا يزال يعمل به فى بعض الاوساط كوثيقة فريدة. فالصحيفة التى نشرته زاد توزيعها فى هذا اليوم بضع مئات من النسخ، صدقنى، لقد اعتبرت أفضل نموذج لخدم السلطة. وعلى خدم الحكومة أن يتعلموا منه.

قال خالد عمر : ولذا، فكم أنا أسف لأننى لا أعرف القراءة. سوف أكون سعيدا فى كل لحظة.

طُرق على الباب، ودخل الغرفة صبى على أطراف قدميه، يبدو قذرا وأشعث، ويحمل صينية عليها فنجانان من القهوة.

- القهوة يا عمر بيه.

قال التاجر : ضعها هنا .

وضع الصبى الصينية. ثم ألقى نظرة خبيثة على الرجلين. وما لبث أن هرول وهو يعرج خفيفا. قال كريم وهو يمسك فنجانه : لقد حدثت لى حكاية بشعة.

- ماذا ؟ لقد اقلقتنى ؟

- أه. لم تكن سوى حكاية سخيفة.

كان عليه أن يطلق ضحكة مدوية.

حكى لخالد عمر عن زيارة الشرطى المصاب بالربو ومزاعمه أن الكورنيش طريق حيوى.

كانت تلك فرصة لخالد عمر أن يسمع ضحكته المجلجلة. قال عندما هدأ :

- المساكين. إنهم مدهشون، قل لى يا رجل. هل ألفت هذه الحكاية ؟

- لا . بشرفى، وهل أنا بقادر على تأليف شىء كهذا. على أن أخبرك أن الأمر تطلب منى جهدا شديدا حتى لا أنفجر فى الضحك عندما نطق بهذه الكلمات، فى الحقيقة كان رجلا طيبا، انه نوع من رجال الشرطة الطيبين، وكى ينجح فى هذه المهنة عليه أن يعيش لسنوات على الكفاف. فهو عجوز وملاح. ثم اننى حاولت أن أرشوه.

- بأى وسيلة ؟

- سألته أن كان لديه ابناء، وعندما رد بالايجاب. قدمت له طائرة ورقية من أجلهم. لم يوافق سوى على طائرة صغيرة. اختارها بنفسه. ثم ذهب وهو يقول لى إننى ساكون مدينا لك طول العمر.

هتف عمر . بارك الله اليوم الذى عرفتك فيه. ماذا يمكن أن أفعل كى أخرجك من هذه العثرة ؟

- حسنا، أعتقد أنك إذا استطعت أن تجعله يحصل على بضع أقات من السكر. فسيكتب محضراً لصالحى.

- سأغرقه بالسكر. إذا كان هذا يسعدك. هل من شىء آخر ؟

- لا شىء، شكرا.

- بل أنا الذى أشكرك.. لقد غمرت قلبى بالفرح لأنك ستعرفنى على زميلك هيكل ساكون مدينا لك ما حييت .

ورغم أن خالد عمر لم يبرهن قط على ما يحمله من مودة. فإن تعجبه فى التعرف على هيكل جعله يبدو وكأنه شاعر عاشق مقيم سيقابل ملهمته. أحس بنوع من البهجة الداخلية العميقة، أكثر من أى احساس بالشهوة، إنه رجل يتخيل نفسه يحارب التعنت والعنف من خلال مدحه للجلاد، عليه الآن أن يفعل شيئا غريبا ! فقد حلم خالد عمر بمثل هذا الرجل من أمد طويل.

(٤)

تلفع بروب دى شامبر قورمى، ترك هيكل اريكته، للمرة العاشرة علي الأقل، واقترب من النافذة، ورغم أنه فى قمة العصبية، فإنه احتفظ بمظهر هادىء وبارد الاعصاب. تحرك بكل خيلاء كأنه قد تربى فى القصور الملكية. كشفت النظرة الباردة، التى خلت من المشاعر عن تصميمه أن يترك نفسه للقدر، فمنذ لحظة، فقد الأمل فى أن يظهر خادمه «سرى». هذا الذى يمكنه أن يعود غدا أو خلال أسبوع، لا أحد يعرف متى، حتى هيكل نفسه. لقد أرسله بعد الظهر، كى يذهب بيدلته الوحيدة الى كواء الحى. ولم يعد حتى الآن، فى السادسة مساء، أغرق هيكل غياب خادمه فى ألم مرعب، فقد راح يتحرك فى شقته وكأنه يتأهب للخروج. لقد بليت كل ملابس الأخرى، وبعبدا عن الجدال، فهيكل حريص أن يرتدى ملابس الانيقة، وتلك ضرورة جمالية تبدو عملا طفوليا، وذلك من أجل بعض الاعمال الوظيفية. لأن الشاب كريم حاول أن يدبر مع السيد الكبير لقاء ذا مغزى، فهيكل نفسه ليس صاحب ثروة ولا جاه اجتماعى، ولكن الطريقة العجيبة التى يرتدى بها ملابسها والتى يمشى ويتكلم بها ليست سوى نتاجا لاجتهاد خاص يلزمه منذ ولادته وتبعاً لطبيعته الراقية.

ابتعد عن النافذة نون أن يكتسى وجهه بأى مرارة. الرأس عالية، وكأنه يتحدى مصيره. فـ «سرى» لن يعود مبكرا. لقد انطلق الى المجهول ومعه بدلة هيكل. هذه البدلة الابهة القديمة التى اشتراها منذ بضع سنوات. راح هيكل فى هذه اللحظة، يتخيل نفسه عرضة لمغامرات ملفنة للنظر، فالسلوب السخرية الذى

يتخذة لنفسه، والاهتمام الزائد الذى يحمى به نفسه ضد أقل ذرة تراب، يشكلان جزءاً مهماً من قراغه.

انها بدلة كاملة، مصنوعة من قماش مستورد، ذات ألوان داكنة وقوية، فصلها أمهر الخياطين فى المدينة بحرفية باقية، لذا فهيكل يرتديها دائماً مما جعلته يحتفظ دائماً بشكله اللينيق ، أخذاً فى الاعتبار مابلغته من تقدم السن. فعندما اشتراها كانت تسارى مبلغاً خيالياً. انها تسارى ثمنها ، وهو يضىف عليها تميزاً بالاضافة الى وقاره الطبيعى، فهذه البدلة التى تخطف الابصار تعطى لهيكل ملامح الشخص الموسر الأهل للثقة ، انه يرتاد اوساط المدينة الأكثر ريقاً بصفته شاباً ينتمى الى الطبقة الموسرة. انه بلاشك ثرى. لم يقتقد قط معظم مصادره من خلال ايراد ضعيف يأتيه من قطعة ارض ورثها، يكفيه كى يعيش بشكل متواضع. لا أحد يعرف مساحة هذه الأرض. لكن اساليبه تؤكد بشكل عام أنه رجل ثرى يملك العقارات. فى الثانية والثلاثين من العمر. لم يعمل ابداً. سعيد بارضه الصغيرة كثيراً. انها أفضل من العمل مع هذه الحثالة من اللصوص القتلة الذين ينتشرون فى الأرض، ومع هذا فإن هيكل لم يكن عاطلاً فقد انشغل طيلة وقته بممارسة الجانب الساخر من الانشطة الانسانية، فالعالم الهزلى يعجبه، بمعنى أنه بالغ الحساسية لكشف أقل بادرة من العقل، فيما يراه أو يسمعه حوله. وأحياناً عندما يقرأ خبراً فى جريدة قريباً من أفكاره، لقد أصبح مريضاً بالغيبظ، كلما رأى الجنون الغيبى الدائم لبشر يمارسون فرحتهم. كان أشبه بطفل فى سيرك لا يكف عن رؤية الاشياء ممتعة بشكل عام.

نظر الى المنبه الموضوع فوق الكومدينو. الساعة الآن السابعة. إنها حدود الوقت الذى اتفق عليه مع خادمه، عليه أن يخبره بالمصائب التى حلت، ولكن فى إطار الصداقة، فإن غضب هيكل لم يتضح ابداً. استمر فى التصرف بهدوء تام، ولم تبرح الابتسامة شفتيه، بدت عليه علامات خفيفة من الخضونة. اشعل سيجارته. ثم تمدد على الأريكة، وقام للحظة كى يتجه الى النافذة. لاشىء. لقد اعتاد مثل هذا الروتين. تخيل «سرى» مدهوساً تحت عجلات ترام، وأحس بنوع من السعادة أمام هذا الخاطر، فتأخير عودة خادمه سوف تمنعه من الخروج. سوف يخلف مواعده مع خالد عمر. هذا الرجل الذى بدت علاقته به جديدة، ويجب أن تزداد

قوة، انه لمن المؤسف أن يخلف أول ميعاد مع التاجر، فمنذ أن حدثه كريم عنه، وهو يتكلم عن الظروف الاستثنائية التي تقوم عليها صداقتهما. لذا يرغب هيكل أن يتعرف عليه. لكنه يكاد أن يتأخر عن هذا اللقاء، ربما عليه أن يتأكد من بعض المعلومات المؤثرة في علم النفس الشخصى. فهو يرى أنه يمكنه أن يطلب مساعدته يوما بصفته شريكاً له قيمته في ممارسة سخريته الخاصة، فحسب ثقة كريم فقد كان يعرف أن التاجر ماهر لكافة أشكال المؤامرات ذات المغزى السياسى. كما كان يكره السياسيين ويعتبرهم أكثر سفالة من الكلاب، ليست الكلاب الصية. ولكن الكلاب الميتة العفنة. فالمؤامرة التي حدثت عنها لا يمكن أن تغريه فقد حدثت أنه ليس فى نيته أن يستولى على السلطة، ولا أن يلقي قنبلة على رأس المحافظ.

كان المحافظ هو أحد الوجوه المخادعة المعروفة. ربما الوجه الأكثر اثاراً للضحك. تعرف هيكل على ذلك من شكله. فهو يراه يوما فى صالة الالعب بكازينو البلدية محاطا بأقرب أعوانه. هؤلاء الذين يشكلون مجلسا من التابعين يحومون حوله كالخدم، يبتسمون بهماية وبلاهة. يهتفون بكل حماس. كان هيكل مغرما بغياء هذا الرجل الكبير، الذى بلغ درجة هائلة من تصديق نفسه. كما أمكنه أن يبلغ مكانة من الغباء المأساوى، الذى يدفعه الى الاحترام. يرى فيه كل غياء البشرية. كان هيكل يخاف أحيانا من المشاعر السادية الكامنة فى هذا الرجل، بدأ له أنه قد عين محافظا لارضاء شخصه، ومبادراته، وخطبه الجماهيرية، لم يفكر سوى فى التملق وأن يقدم له ما يشحن حسه الانسانى. كأنه يشك أن شخصا فى المدينة يمكن أن تصدر منه بعض الحماقات كى يحس بالمتعة. لم يفتقد روحه كمهرج. كيف لم يستطع هيكل أن يحب رجلا مثل هذا ؟ لا شك أن موته يعتبر إهانة. هذا مالم يفهمه الثوار الاغبياء الذين يناضلونه بشكل عنى. فهم يعطونه الفرصة كى يأخذ الأمر بشكل جدى. وبالنسبة لهيكل، فإن جريمة الأقوياء تعتبر شهادة. وهو ليس على عجالة أن يعلنها بأعلى صوته فى الشارع. بل حتى يمكن لطفل أن يلاحظها وحده.

توجه مرة أخرى نحو النافذة، استوقفته حركة قادمة من الممر. فجأة زالت غضبته ضد خادمه مرة واحدة. أحس كأنه قد تخلص من الغضب. ويعد ثوانٍ، ظهر «سرى» حاملا بدلته الشهيرة على كتفه معلقة فى الشماعة:

– هل هكذا أستطيع الاعتماد عليك ؟

بدا «سرى» أمام مخلومه بوجه متعب ذى تعبيرات، منهكة. ورغم أنه لم تبتد عليه الدهشة فإنه بدا مسطولا تماما. وفى حالة انعدام وزن، العينان تصف مغمضتين. بدا نائما وغير واعيا لنفسه. وكأنه قد قطع حبله السرى مع الناس مبتد لحظة ميلاده. مما أتاح له الهدوء والتفكير، ونون أن يفتح عينيه، قال بصوت هادئ:

– يا أمير .. انها ليست غلطتى، بل الظروف ..

– أى ظروف ملعونة ! أنا على موعد مهم، ويسيبك سوف ألقيه.

قال «سرى» وهو يفتح عينيه الشاحبتين : أسف يا أمير. ولكن الظروف ..

قال هيكل : اسكت والاختنك. هيا. ضع البدلة على الأريكة

لم يرد «سرى»، ولكنه هز رأسه بضعف، مؤكدا أنه لا يستحق مثل هذا الاستقبال، وبحركات بطيئة، وكأنه ينام ببطء، وضع حمله الثقيل فوق الأريكة ثم تمدد فى ركن من الغرفة وانتظر بكل قلق أن يوجه له سيده الكلام. لكن «هيكل» لم يعره انتباها، وقف أمام مرآة اللولاب، وبدأ فى إرتداء ملابسه، سعيدا أن يينو على هذا المنوال. انه هكذا دائما، فمن المستحيل أن يصيبه كل هذا من خائمه، فخلف شكله الخارجى الرائع يمتلك «سرى» مواهب لا نقاش فيها. لذا فهيكلم يعتمد عليه فى المسائل المادية. يمكنه أن يبقى أسابيع عديدة نون أن يعطيه نقودا، ويستمر «سرى» فى التمسك بوظيفته وكأن النقود لا وجود لها. فهناك ما ياكله فى وقت الراحة. إنن لماذا يتخلص منه. ظل هذا أمرا غامضا. شك هيكل فى أنه يسرق الماكولات وبعض السلع من عند تجار الحى. ينتظر من يوم لآخر أن يراه وقد انتهى به الامر فى السجن. ومن وقت لآخر. يينو «سرى» اشبه بلقز، فهو لا يتكلم عن النقود كشيء ضرورى، أو أنها يمكن أن تنفعه، أعلن هذا وكأنه اكتشف فلسفة عدمية، ولكن ما أهمية هذا التلميح الغامض لأزمات المالية، فكل هذا هباء. لقد فهم هيكل أن خائمه على حافة الافلاس. فاقترح عليه القليل من المال. رفضها «سرى» زاعما أن الأمر غير ضرورى، وأنه ليس على وشك الدمار. ألح هيكل، وكأنه سوف يغضب. وأخيرا وافق «سرى» على المبلغ على مضض.

وعندما رأى مخبومه يدير له ظهره، استكمل ارتداء ملابسه دون أن يليه .
مطالبه، لم يكف «سرى» عن هز رأسه. ولكنه شرح في الهمهمة من بين أسنانه.
بدا كأنه يرد على اتهامات مدبرة ضده من أشبه بالبرهمنين وأنه يضعه في دائرة
الشك، تركه هيكل يزفر شكوته، ثم قال بنفاد صنيعة

- ماذا هناك أيضا ؟

- هذا ليس عدلا، يا أمير !

- ماهو الذى ليس عدلا ؟ ألا يكفك أن تراه متأخرا على موعدى ؟ هل
يجب أن استمع الى نحيبك ؟

- نعم، يا أمير، ليس عدلا. لا أستطيع أن أحتمل أن تغضب منى. لقد
تأخرت فعلا، ولكنها ليست غلطتى. يجب أن أنقذ شرف بيتنا !

- شرف بيتنا ؟ ماذا تقول ؟ ألا تتركنى فى حالى. رح ونم فى المطبخ.

- لا أرغب فى النوم. يجب أن أحكى لك القصة برمتها.

استدار هيكل وهو يزرر قميصه ليرقب خادمه، إنه يعرف نوع القصص
التي يحكيها «سرى»، كانت فى أغلب الاوقات حكايات غامضة، وطويلة الدرب،
وصعبة التصديق، أما إذا كان لديه الصبر لسمعها فإن هذا من قبيل المكافأة،
لأنها دائما تتعلق بموقف طريف، يسمعها هيكل بكل متعة، ولكنه الآن على عجلة
للذهاب لمقابلة خالد عمر. وسوف يرفض اغراءه قال :

- لا أريد أن أسمع شيئا.

- استحلفك بالله أن تسمعنى.. لم استطع أن أفعل غير ذلك، أتود أن نفقد

ماء وجهنا أمام الاجانب ؟

- لا أفهم شيئا مما تقول، لماذا نفقد ماء الوجه ؟

بدا «سرى» وكأنه آثار فضول سيده، وقد أخذ هيئة قَصَاص شعبي.
بمعنى أنه مال فوق الارض، وراح يجلى صوته، ثم تاهب لحكايته ، وألقى نظرتة
حيث يبلى ضجره الغامض. وبدأ:

- حسنا يا أمير، فأنت تعرف، أن دكان «صاقي» الكواء مكان مفضل للعديد من تבלاء الحى، يجلسون هناك طيلة النهار يتفلسفون ويدخنون ويشربون الشاي الاخضر. يجب أن أقول لك أنهم يعاملوننى باحترام فائق. إنهم ناس معروفون ويعلمون أننى أخدم فى منزلك.

سكت «سرى» وأغلق عينيه تماما. وكأنه افتقد انفاسه، سأل هيكل :

- هه .. وبعد ؟

رد «سرى» : يا أمير. هذه العصرية، أدركت أن الموقف خطير.

- أى موقف يا ابن الكلب !

- افهمنى يا أمير ! لايمكن أن أتركهم يعرفون أنه ليست لدينا سوى بدلة واحدة، ففي كل مرة يرونها هى نفسها. فبدأوا ينظرون الى بابتئاس وهم يهزون رءوسهم بمظهر المرتاب، عندما اتكلم عن الرخاء الذى نعيشه فى منزلنا، باختصار، لقد زاد الكلام علينا ، لذا، رحلت أبتدع حكاية كى أنفى هذا الموقف.

قال هيكل بغضب بارد . أكمل، الآن أنا متأكد أنك مسطول.

- ليحفظنى الله ! لاتغضب يا أمير! لقد أردت أن أكذب كل المزاعم حول موضوع ثروتنا، وأن احكى لهم أنك تولى عناية لهذه البدلة، رغم الدولاب الملىء بالملابس من كل الانواع لانها تذكرك بمغامرة عاطفية تركت قلبك ميتا. لقد جعلتهم يعتقدون أن ارتداء هذه البدلة قد تم فى لقاءك الأول مع امرأة جميلة عشت معها أكبر قصة حب فى حياتك .. ولكن .. هه ..! لقد ماتت المرأة .. فأصبحت - سعادتك - بالإعياء. وظللت تحس بنوع من المشاعر لهذه البدلة وأنت تتذكرها. هذا كل شىء، يا أمير! سوف تقول أنه أمر غير مهم.

- وهل كانت يلزمك كل هذا الوقت لقص هذه الغباط ؟

- لم يوبوا أن يتركونى أذهب يا أمير، أرادوا أن يعرفوا تفاصيل المغامرة، مثلا : ما اسم المرأة، وكيف ماتت، وإذا كنت قد تزوجت. وكان على أن أرد على أسئلتهم، وفى النهاية، ذهبت بعد أن وعدتهم أن احكى لهم تفاصيل أخرى فى المرة القادمة.

بدا كأنه نائم أكثر من ذى قبل. قام «سرى» وأمسك قرشة الملابس، وراح يقف قريبا من هيكل. وقد اعتقد أن الأمر قد انتهى. وانتظر أن يهتفه سيده، ثم سأل:

— هه .. أأست غاضبا يا أمير ؟

قال هيكل : حسنا. سوف اسامحك. رغم هذه القصة الغبية التى لم أسمعها. الآن، لقد أهملت شئون البيت، وجعلتني أتأخر عن موعد مهم.

أجاب «سرى» وهو لايفتح عينيه، وقد بدت عليه تباشير عنف : كيف أستطيع أن أهمل شئون البيت . لن أترك أحدا قط يشتمك يا أمير.

قال هيكل وقد أدرك أن من الخطر أن يطول النقاش، فالشرف هو الموضوع المفضل لخادمه :

— أعطنى منديلا.

توجه «سرى» الى الكومدينو وهو يعرج من أجل أن يحضر منديلا ابيض نظيفا، مد يده الى سيده، الذى أمسكه وفحصه بدقة كى يتأكد أنه خالٍ من أى أثر للتراب، ثم دسه فى جيب سترته الداخلى. الآن. هو فى قمة اناقته، نظر للمرة الأخيرة فى المرأة، ووجد أن كل شىء بلغ درجة تجعله مؤهلا للخروج.

هذا الخروج الذى باغته قليلا لم يكن على مزاج «سرى»، فقد اراد أن يناقش طويلا مع سيده، وأن يبوح له ببعض الافكار العميقة التابعة من مخه «النعسان» ، لكنه أحس أنه لايمكن أن ينال الرضاء لان هيكل قاطعه، ثم رمش بعينه، وتساءل بصوت صافى :

— ماهى أوامرك ياسيدى ؟

رد هيكل : لست فى حاجة لشىء. سأتعشى فى الخارج. يمكنك أن تنام.

واختفى فى الممر، تاركا «سرى» فى غاية الدهشة.

(٥)

كسى مُشعل المصابيح بحركته الماهرة ضوء الغروب بجو من الخيال الساحر، راح يمارس عمله الليلي وهو ينتقل من مصباح لآخر. وكأنه بهلوان، تتبعه هيكل بعينيه لحظة، قبل أن يفوح فى الشارع. ما إن سار بضع خطوات حتى سمع همسا من رجل يبدو كأنه يختبئ خلف جذع شجرة، بوغت به، تقدم هيكل نحو الرجل المجهول وتفحص وجهه للحظة قبل أن يتعرف عليه. كان الرجل معرفة قديمة. إنه شحاذه الشخصى منذ سنوات، ينتظره كل يوم أمام بابه. لم يره هيكل منذ أن طاردت شرطة المحافظ زملاءه عبر المدينة.

راحت أعضاء الرجل ترتجف، وبدت عيناه « المعمتان » زائغتين أما أسماله فأكثر قذارة من العادة، همس بصوت خفيض :

- يساعد الله المؤمنين !

قال هيكل : نعم، إنه عصر حزين، أين كنت منذ فترة ؟

رد الرجل هامسا : كنت مختبئا. ماذا تريد أن أفعل ؟ انهم يلقون بكل من يسكونه فى السجن. هذا المحافظ من النوع العنيد.

- أعرف ، لكنه لن يستمر طويلا. سوف تنتهى الأمور الى الأفضل.

- يسمع منك رينا. أنا عطشان لكلمة أمل.

التفت حوله. ويذا كأنه يخشى أن يظهر أى شرطى فى أى لحظة.

أكمل:

- سوف تُخرب هذه المدينة. وسيضطر المساكين للاختباء.. ترى كيف سنعيش؟

علق هيكل . لانتشام . هيا أخرج من هنا. رافقتى حتى آخر الطريق. سنتحدث ونحن نمشى.

بدا الرجل مليئا بالفزع. قال :

- لا أستطيع . إنهم فى كل مكان. إنهم يطاردوننى .

قال هيكل وهو يمسه من ذراعه : لا تخش شيئا، أنت معى. لن يستطيع أحد أن يقترب منك وأنت تتمشى مع صديق.

هتف الشحاذ : صديق . من أجل هذه الكلمة فلا يمكن أن تورث على نار.

تابع هيكل. مترددا فى البداية. ثم مشى إلى جواره. بدا خوفه وكأنه قد زال، ظل محتفظا بإيقاع خطاه، ابتسم هيكل، فهو سعيد من هذا اللقاء وراح يبحث عن وسيلة لمساعدة هذا الشحاذ، قال :

- سوف أقدم لك اقتراحى. لست فى حاجة أن تنتظرنى فى الشارع. تعال لتزورنى كل يوم فى منزلى. فليس هناك أى خطر. نظر هيكل الى الشحاذ وراه قد أصبح أكثر حزنا، فالإقتراح لم يرضه قط. سأله :

- ماذا يضايك؟

سكت الرجل، وقد بدا مكفهرا. وكان هيكل قد أهانه بشدة.

انتهى بأن قال :

- لست موظفا. وماذا ستفعل صداقتنا؟ ألا يوجد سوى النقود فى الدنيا يروقتى أن اتحدث معك وهذا هو ما أندم عليه.

قال هيكل : فهمت .. وأنا أيضا افتقد هذا. إذن. إفعل ما قلتك لك. خذ

هذه.

أخرج قطعة نقود من جيبه ودهسها فى يد الشحاذ.

قال الرجل . ربنا يزيدك بركة .. فرؤية وجهك تجلب لى الخير .. وتولد

الأملى فى قلبى .

الآن ، حل الليل. وصلا عند أطراف ميدان يغمره الضوء تماما، وتحفه المحلات، والمقاهى المليئة بضجيج الزبائن. دليل سيادة هذه الحضارة البوابيسية التى تتحدى هذا الشحاذ. توقف غاضباً ، وكأنه أمام غابة غزتها الحيوانات المتوحشة المتأهبة للانقضاض عليه. فقرر الا يذهب بعيدا. قال هيكل :

- حسنا، اتفقنا . هل ستأتى لرؤيتى ؟

وعده الرجل : سوف أجيء لأراك مرة، على أن أجب الموت ! حفظك الله.

نصحه هيكل بالحذر .. ثم تركه وعبر الميدان.

يقع مقهى الـ «جلوب» الشهير على مسافة قريبة من الكورنيش فى أحد الشوارع الأكثر فخامة بالحي الافرنجى. توجه إلى مكانه الذى يمر أمامه دائما بلا توقف، أكبر عرض من الحسنات حيث يقضى أغلب الزبائن - يمكن أن نقول جميعهم - أوقاتهم فى استكشاف هضاب النساء اللائى يمررن فوق الرصيف بإيقاع يثير الدهشة. فالأثواب الرقيقة التى ترتديها هذه المخلوقات عامة جذابة. تجعل مهمته سهلة، بعض الزبائن، - وليس أغلبهم - من الشبان، يجلسون طيلة النهار، يراقبون عن قرب اتساق ساق جميلة، أو تموجات فائرة لردف ما. حقا، فإن ما يحصل عليه الفتيان من هذه التأملات العاطفية لفتنتهن ليست كافية، يحكى أن من بينهن، توجد بعض الداعرات اللائى يخرجن عمدا بلا «لباس» من أجل إثارة المتعة الخبيثة لدى البصاصين «الغلابة». ولهذا فإن شرفة مقهى «الجلوب» لا تخلو أبدا. حتى فى ساعات القيقظ بعد الظهر، لأن هؤلاء الأنسات، حسب العادة، يستعرض أجسادهن فى ساعة القيلولة. أما داخل المقهى فيبدو خاليا تماما. يرى أحيانا رجلان أو ثلاثة من العجائز على أهبة الرحيل من هناك، منشغلين - بلا هدف - فى مباراة نومينو تكون نتيجتها مخاطرة مينوس منها، من وقت لآخر يلتفتون رغما عنهم الى صيحات الإعجاب لزبائن الشرفة، فيلقون عبر الفتحة الزجاجية نظرة الى الشىء موضع الدهشة، ثم تخبى مشاعرهم. ويلقون بأنفسهم فى لعبتهم الشيوخية.

جلس هيكل عند طرف الشرفة. كعادته. ثم راح يفتش بين الموائد، يتذكر

المداعبات القدرية حول بدلاته الرائعة المكواة لتوها، نظر أمامه ويدا غير مستعد لان ينتبه للعابرين فى المر، تسامل إذا كان خالد عمر قد وصل. وهل سيتعرف عليه. هذا دليل مؤكد يجعل التاجر هدفا بأن يسبر فيه صديقه الحميم الجديد. انه نوع من الاختبار. عليه الآن أن يتعرف على هذا الرجل الشديد الذكاء، بدا له أنه من المستحيل على خالد عمر - إذا كان صحيحا هو الشخص الذى يتصوره - أن يكون قد تجاهل وجوده.

وقف شخص أمامه كأنه يسد الطريق، أخفض هيكل نظرتة، ورأى هيكل «عمر» الذى مد له يده الضخمة المرصعة بالخواتم:

- لقد شملتتى بشرفك !

أجاب هيكل: بل كل الشرف لى.

امسك يد الرجل. وراح يضغط عليها بيديه. أجاب خالد عمر :

- تفضل ، اجلس.

جلس هيكل. وظل خالد عمر للحظة واقفا. ثم جلس بدوره. لم يكف عن النظر اليه، وبدا هيكل زائغ العينين. أعطاه الإلتطباع أن شخصا ما كان سببا لنيرته المبتهجة. قال هيكل:

- معذرة إن جعلتك تنتظر، هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

بدا خالد عمر كأنه يخرج من حلم :

- عشر دقائق تقريبا. ولكن هذا لايهم، أنا بالغ السعادة لرؤيتك. لقد عرفتك على القور.

أقترب النادل منهما، زجاجة ويسكى وطبق صغير ملىء بالمشهيات، سأل الصبى وهو يوجه كلامه الى هيكل:

- ما طلبات سعادة اليه؟

طلب هيكل ويسكى فذهب النادل، أمسك خالد عمر طبق المشهيات وقدمه للشباب:

- تفضل ونحن ننتظر.

قال هيكل: لا، شكرا. ليس الآن.

قال خالد عمر: اعزرتى لأننى أكل أمامك ، فأنا أحب المشهيات ... كل أنواع المشهيات.

التقط من المشهيات ... وديسها فى فمه ثم ألقى النفايات بأصابعه.

أكل خالد عمر من المشهيات وهز رأسه وهو يتفحص هيكل مشبوها:

- لقد عرفتك على الفور.

رد هيكل: أريد أن أخبرك أن هذا يسعدنى.

- كنت واثقا اننى سأعرفك. أليس كذلك؟

- ماذا تعتقد ؟

قال خالد عمر : حسنا، من الغريب أنك أردت مقابلتى بهذه الطريقة. لا أفهم لماذا تبحث عن المصاعب. كان يمكن لصديقنا كريم أن يقدمنا لبعضنا . على كل لم يخدعنى وهو يصفك. هذا لايعنى أنه وصفك شكلا. وملبسا. لا، بل كلمنى عن أفكارك. ويكفى هذا لأن اتعرف عليك.

تساعل هيكل : هل تبدو افكارى على وجهى؟

- لا أعرف كيف أشرح لك. لقد رأيتك لتوك تعبر الشرفة. وتساعلت: هل

هو؟ لقد بدا عليك أننى اعرفك أكثر من الاخرين.

قال . اعرف شيئين بالقى البساطة. أما الباقي فلا أهمية لهم .

- انهما ربما الشيطان اللذان اعرفهما .

- بلا شك، ولهذا أنا هنا. يمكننا أن نتكلم بصراحة.

- أذن قل لى أول الشيين. وأنا أسمعك.

وكان ما سوف يسمعه يستحق زيا رسميا، لذا أسرع خالد عمر بضبط

رابطة عنقه وناعم شاربه المصبوغ. لم يكن فى تصرفه أى دليل مزاح، وأيضا أى

نوع من القلق:

- الأول هو أن العالم الذى نعيش فيه تحكمه عصبية نبيلة من الأندال التى

لطخت الارض.

- أنا متفق تماما مع هذا الرأي.. والثانى؟

- الثانى، أنه لايجب أن نأخذ الأمر على محمل الجد، لأن هذا هو مايرغبون فيه.

قال خالد عمر وهو يطلق ضحكة صاحبة وعميقة : اتفقنا.

أثارت الضحكة العذوى. لأن العديد من رواد المقهى قد ردبوا لتوهم. وتداولونها كل بطريقته، استدار خالد عمر حوله وراح يغمز لهم بعينين ممتنتين. وكأنه يشكرهم أنهم انتبهوا لمرجه، وكأنه يشجعهم على متابعة هذه البهجة الهذيانية، ثم هدا، أما الآخرون فقد استمروا فى الضحك الذى انطلق بون أى قصد. لم يشارك هيكل فى هذه البهجة العامة. وظل جالسا فى مقعده بكل جمود وشموخ. يراقب بكل رضاء تصرفات صديقه الجديد، إنه مشدوه للغاية بهذا الرجل القصير المرح المكرش ذى الشارب اللامع المدهون الذى تفوح منه رائحة البنفسج. إنه حالة بسيطة . رجل لم تفسده النقود. ظل على نفس طريقته كشخص إلى عهد قريب يمشى حافى القدمين وينام فوق نفس الرصيف. بدا متكرا فى ملابسه المتعددة الالوان. فلم تستطع كل ثروة العالم أن تأخذ منه هذه البهجة الأصيلة. هذه المشاعر الخشنة التى تبو فى كل حركاته. بدت ضحكته كأنها تحد سافر وساخر فى مواجهة السلطات. أكمل خالد عمر:

- هذا أمر بيديه.

قال هيكل : نعم، إنها لا تمنع إلا القليل من الناس أن يتصرفوا بمثل هذه البديهية.

- ماذا يهمننا؟ هل ستكون من الناس الذين يوبون حكم العالم؟

رد هيكل: ليحفظنى الله. لا أود حكم العالم مهما كان. فلا يوجد أسوأ من هؤلاء الذين يحكمونه . إنهم جميعا من الطموحين.

قال خالد عمر : أعرف ذلك. ولكننى سعيد أن أعرف ذلك على لسانك. لقد قابلت فى السجن بعض هذه النماذج، بنوا لى كأنهم من عجيتتى بمظهرهم المألوف. كانوا أكثر انتفاخا من امرأة حامل. لقد أثرت معايشتهم على فى السجن تأثيرا موريا.

قال هيكل بحقد باد أنهم يثيرون الملل. هدفهم هو تغيير الحكومة بأخرى.

هذا ما قيل بالضبط. كان أغلبهم يحلم بأن يصبح وزيراً، هل يمكنك أن تتخيل طموحا أكثر قدارة. أرجوك لاتكلمنى عن هؤلاء الناس.

- أنت على حق. إذن، إسمع، أريدك أن تعرف أن هذا يجعلنى متوافقا معك. لقد حكى لك صديقنا كريم اننى بحكم القدر أصبحت تاجرا محترما وموسرا. بعد أن كنت فريسة للسجن، انها قصة جميلة، ونبيلة، سوف أشرحها لك بالتفاصيل، لأننى واثق أنك ستفهمها. باختصار لقد كسبت كل أموالى بطريقة حمقاء وبالفة العبثية. حيث تفتحت عينائى على جنون العالم. لذا فأنا أريد أن أضع هذه النقود فى خدمة هدف عقلانى عادل. أريد أن أساهم فى جنون العالم. هل تفهمنى؟

- طبعاً. سبب عقلانى، أنت لايمكن أن تعبر عن أفكارى أحسن من هذا.
- من غير المجدى أن أخبرك اننى اضع كل ما أملك تحت أمرك. أنا متعجل لمعرفة مشاريعك؟

رفع يده ووضعها على ذراع هيكل بحركة أخوية.

سكت هيكل. ليس لانه لايوافق على هبة التاجر. ولكن بكل بساطة، لأن قلبه يديق فى كل مرة يتأكد فيها من أخلاق هذا الرجل الذى لا يكاد يعرفه، إنه يقدم له ثروته، أى نوع من اللواضع تدفعه كى يتصرف بمثل هذه الصورة، هذا التاجر الامى كان بالتأكيد شخصا غريباً. ماذا قال؟ إنه يساهم فى جنون العالم.

خاف هيكل من هذا الصفاء الذى يفوح من روح خشنة. هل قابل صديقه لتوه؟ وهل هو فى حاجة اليه؟ وأى متعة تنتظره من هذا الهدف الأحمق الذى يستعد من أجله للتضحية بثروته؟ ثروته؟ لم يطلب منها هيكل شيئاً. هل يفكر أن يبدد ثروته بدافع التسلية؟ ليس عليه سوى أن يحتفظ بها، والعرض مجانى.

سحب خالد عمر يده فلمعت الخواتم لحظة فى الضوء. هنا عاد النادل اليهما. قال هيكل وهو يمسك الكوب الذى وضعه النادل على المائدة:

- لنشرب نخب مفاهيمنا المشتركة.

رفع خالد عمر كأسه ثم طرقا الكأسين.

كان الشارع مزدهرا بمنتزهى المساء الباحثين عن الهواء المنعش بعد يوم قاتئ، حيث يمر بعض الموظفين المتحجرين المتعجرفين، ارباب أسر، «متكابين» تتبعهم زوجاتهم وأبنائهم، وأيضا ثنائيات من الشباب يمسك كل منهما بيد الآخر، بمهابة واضحة، لكن أحد من رواد «الجلوب» الجالسين على الشرفة لم يلتفت الى هذا الموكب الكئيب، ليس من أجل هذا الحشد البشرى الذى يموج هناك. فالكل ينتظر بصبر نافذ مرور انثى ذات تكوين جسمانى متميز، قادر أن يثير فيهم المتاعب الشهوانية، ومن وقت لآخر ينطلق صخب حاد وكأنه صفاة إنذار تعلن اقتراب القرام التائه فى الضواحي، السائقون يرتدون زيهم الأكثر تميزا فى الزحام، يسبون الحشود المتكاسلة التي تموج وسط الطريق، التي تنشد النسمة الخفيفة القادمة من البحر، حاول هيكل نون جدوى أن يميز فى هؤلاء الرعاع الوجه الطيب والسمح لبعض المتشردين الهاريين من براثن الشرطة، لم ير أحدا منهم. حقا، لقد أصبحت شوارع المدينة منحوسة بشكل غريب، لقد خلت إلا من الوجوه الشعبية. إنهم الحزاني والمحتاجون، فالمرء محاط فى كل مكان بالموظفين، لم يستطع هيكل أن يمنع نفسه من التفكير فى الرد على الشحاذ عندما سألته أن يأتى إليه كل شهر ليأخذ المبلغ الذى خصمه له. لقد رفض بذلك أن يجعله موظفا. أى أن يصبح شحاذا مألوف الوجه. أى أهانة إذن أن يكون من هذه الذرية التي لا تعرف سوى ممارسة الوظائف، أن تتبع الروتين العام. نفس الحكايات المكلفة لهؤلاء الموظفين الصغار الذين عرفوا بالقدرة على العمل والمثابرة. إنه من الصعب التفكير فى أن الجنس البشرى لم يفرز سوى رجال عظماء، وموظفين صغار يتطلعون للترقية، وفى بعض الحالات الضرورية، يمكنهم أن يقتلوا الآلاف من أمثالهم، من أجل الحفاظ على وظائفهم والطعام الأنسب لأسرهم، هذا الشئء الوجد الذى يدعو للثناء والذى يفرض الإحترام وإعجاب الجماهير.

دفع خالد عمر الهواء بيده كى يصطاد ذبابة حطت على طبق المشهيات، ثملقى على هيكل نظرة خالية المعنى. لماذا سكت رفيقه؟ لماذا راح يهتم بحركة الشارع؟ هل يتحدى نفسه؟ فكر خالد عمر طويلا فى الطريقة التي دار بها الحوار،

وتسائل اذا كان هيكل سيلبي مطالبه فى هذا اللقاء الأول. أعطاه سكوتة الشعور أنه متردد فى كشف مشاريعه له. فافتقاد الثقة يؤله. ألم يضع كل ما يملكه رهن إشارته؟ أعجبه البرود الظاهر لهذا الشاب، وغريزية أساليبه، وابتسامته الساحرة وازدراؤه إنه يذكره بالعلامات الجلية لروحه الأرستقراطية، لاشك أن خالد عمر معجب بهيكل بلا حدود من خلال كل ما قاله له، فهو ينتظر أن يوافق أن يمنحه ثروته وإخلاصه. قال هيكل:

- أشكر لك كرمك. من المؤكد أنني فى حاجة لمساعدتك. لكن هذا لن يتطلب ثروة كبيرة، كفى مبلغ قليل للغاية.

- مهما كان فأننا تحت أمرك.

عقد هيكل ساقيه، وشرود لحظة، وقد ركز عينيه على جموع المارة. ثم استدار نحو خالد عمر، وقال:

- حسنا، أعتقد أنني لست فى حاجة أن أعرفك؛ ان الرجل الذى يحكم هذه المدينة الآن قد تجاوز حدود الرعب والغباء.

- أعرف، أعرف أيضا أن كل العصبة السيئة من رؤساء الصحف يتبعونه ولا يتوقفون عن التغنى بتملقه.

- ليس هذا ردينا ، بل على العكس، فمهمتنا ستكون سهلة ، لماذا إذن؟

قال هيكل سهلة لأنها ستكون عادية، سنغنى متملقين هذا المحافظ البشع وسوف نتجاوز غباءه.

- لقد علمت من كريم أن الصحف قد توقفت عن نشر رسائلك التى تكتبها للقراء المتحمسين، على كل فهى فكرة رائعة، اسمح لى أن أهنتك.

- الأمر لا يتعلق بهذا، سوف نفتتح مؤسسة دعاية من طراز فريد، شئ ما لايمكن للبوليس السياسى أن يلحظه. سنبدأ بطباعة إعلانات عليها وجه المحافظ ، سنجبر كل السذج أن يضحكوا منه ويمساعدة أصدقائنا، سوف تعلق هذه الإعلانات فوق حوائط المدينة، هل يمكنك أن تقوم بعمل من هذا النوع؟

- طبعا ، ستعتقد كل المدينة أن كل هذه الإعلانات مطبوعة بواسطة خدمات البلدية المعنية بالمطبوعات.

- ومن يشك؟ هل رأيت أبدا ثوارا يناضلون محافظا أو يتحذونه وهم يتغنون بمدحيه. هناك شيء آخر وهو أن المحافظ نفسه سوف يتخيل أن هذا قد تم بواسطة أحد أتباعه المخلصين وسوف يرضى غروره بالتأكيد. انه شديد الغباء كى يفهم الامر. وحتى عندما يفهم. سيكون من الصعب أن يمك شيئا. وسوف نستمر فى التملق بكل جدية، وإن تكون هناك أى مخاطرة، وإن يجرؤ قط فى القبض علينا. أنا مستعد من ناحيتي أن أقول عنه كل ما لدينا أمام أى محكمة. ولكن هذا لن يحدث.

قال خالد عمر. كلماتك تملؤنى بالأمل. بالله، لا أعرف ماذا أقول..

رد هيكل ليس هذا كل شيء، فهذه الإعلانات ليست سوى بداية. فأنا لى طرق أخرى سوف تجعل المحافظ مشهورا فى كل البلد. سوف يصبح مثيرا للسخرية لدرجة أن الحكومة سوف تضطر أن تخلعه.

تململ خالد عمر على مقعده. وقد سيطرت على نفسه شيئا فشيئا مشاعر رقيقة ، لقد بدا وكأنه اكتشف تصدعا فى عقل هيكل. هذا التصدع ذو أهمية كبرى، يستهدف لتدمير شخص له مكانته كالمحافظ. أليس هذا متفق مع رغبته؟

ألزمته هذه الفكرة الصمت للحظة.

- أخبرنى. هل سنراه حقا وقد تم خلعه؟

- طبعا، لا. أين ستجد رجلا أنسب منه سخرية. للأسف سوف نضطر أن نفعل هذا. فليس لدينا الخيار.

قال له خالد عمر: احس أننى سأنتسلى على أحسن ما يكون.

التفتت امرأة تبدو غانية، ذات ثديين ناهدين فى مشهدهما وكأنهما سفينتان فى أعلى البحر، ونظرت الى شرفة المقهى. مرت وأطلقت نظرة جانبية داعرة، فاقتفى زبائن المائدة المجاورة أثرها على الفور عبارات الغزل كأنهم عارفون ببواطن الامور. تكلموا كأنهم جنود داخل خنادق أكتشفوا الحقيقة الاساسية

لعالمنا، ثم راحوا يطلقون التساؤلات والتعابير الغامضة المجسدة، وأخذوا يطلقون انتقاداتهم حول ادق التفاصيل الحميمة لجسد المرأة المجهولة. قال هيكل:

- ألا تبعث النساء على تسليتك بما فيه الكفاية؟

رد خالد عمر: أحب النساء. ولكن هذا لايقارن بمتعتي فيما يتعلق بهذه الشهوة.

- هل أنت متزوج؟

- حسن. بصفتي تاجراً محترماً يجب أن أشرح لك أنها ليست نفس الطراز دائماً. لست من الاثرياء الاغبياء الذين يغيرون سياراتهم كل عام ويحتفظون بنفس المرأة. أنا أغير المرأة كل عام، وليست لدى سيارة.

قال هيكل. أنا سعيد بهذا لأجلك.

- أحياناً، أتخلص منهن فى فترة قصيرة. صدقتى، فالنساء تصيبهن الشبخوخة أسرع من السيارات.

ثم أكمل بعد لحظة:

- لنعد الى عملنا، ماذا تطلب منى؟

قال هيكل: كل ما أطلبه. ألا تعتقد أنه من الصعب العثور على رجل له مصادره مثلى. هاك، فأنا فى حاجة الى مطبعة أولاً. ثم الى مكان سرى نقوم فيه بعملنا. هل يمكن أن تدبر لى هذا؟

- كل ماتريده. ستكون لك المطبعة خلال يومين أو ثلاثة أيام على أقصى

حد. الا يمكن أن أفعل شيئاً آخر؟

- الآن، هذا يكفى، أشكرك. فسوف أتكفل بالباقي.

- اعتقد أنك سنكتب نص الإعلانات بنفسك.

- لا . ليس أنا، سوف أكلف به أحد أصدقائى، انه ناظر مدرسة، يدعى

«عرفى» ، لعلك تعرفه.

- أعرفه جيدا ، فأنا أحد تلاميذه، وقد تعلمت القراءة في مدرسته .

هتف هيكل بإعجاب غير مصطنع: هل ذهبت الى مدرسة عرفى. بشرقى أنت راجل رائع، لماذا وددت تعلم القراءة؟

لقد غار التاجر من رؤية كريم أو أى شخص من أصدقائه المتعلمين، وقد راحوا يقرعون مقالات الصحف، مما جعله يحس أنه خارج اللعبة. وكان عليه أن يتوسل اليهم أن يقرعوا له مقاطع من الصحف التى تجعلهم بالفى السعادة. ولكن بالتأثير يمكنه أن يضحك بدوره وربما أكثر من الآخرين، لكن هذه البهجة المتأخرة لم تكن تنقصها المرارة ، وقرر التخلص من هذا الامر. بأن يتعلم القراءة، أراد أن يتعلم بلا وساطة بعيدا عن الخسائس العالية التى يمارسها طغاة السلطة:

- أحب دائما أن أتحقق من كذباتهم. إنها متعة تأخرت فى معرفتها. للأسف، فأنا لم أتقدم كثيرا، فأنا تلميذ بليد للغاية.

- هل كنت تذهب هناك بانتظام؟

- لا. بين وقت وآخر. كنت أحب عرفى كثيرا. هل تعرف أن أمه أصابها جنون؟

قال هيكل: أجل. كنت هناك. فمئذ بضعة أشهر أصابتها حالة فراغ، نوع من الجنون.

- ليس الامر جسيما .

- الامر لا يمنع أنها تشكل بالنسبة له عبئا ثقيلا. فهو لا يمكنه أن يعتنى بها. وفى نفس الوقت يهتم بتلاميذه، قبل أن يحدث هذا. كانت تساعد فى عمله،، إنها امرأة مثقفة، صدقنى، فصدقتنا يعيش فى موقف مأساوى. رغم أنه لا يود أن يمتثل، اقترحت عليه مرات عديدة أن أرسلها على حسابى الى مستشفى متخصص لعلاج هذا النوع من الجنون. ولكنه رفض بإباء. لم أود أن ألج أكثر خشية أن اجرح مشاعره. أنه أمر بالغ الحساسية. ألا يمكنك أن تناقشه فى هذا؟ أرغب من كل قلبى أن أقدم له يد المساعدة. أنا واثق أنه سيستمع لك.

استغرق هيكل وقتا فى التأمل. فقد كان يعرف عرفى منذ أمد طويل ولا
يجهل كل الحب والعاطفة التى يكنها ناظر المدرسة لأمه. فهو يريدُها قريبة منه
حتى وهى مجنونة.

- أعرِف عرفى جيدا، انه رجل بالغ الذكاء. يزعم أن أمه ليست مجنونة.
ومؤمن بأن فى العالم الذى نعيشه يرى البعض أن الجنون أمر عبثى. أعتقد أنه
على حق.

- سمعت أنها كانت تقوم بالقاء بعض الدروس للتلاميذ اثناء غياب عرفى.
وكما يبدو فالاطفال لم يفهموا شيئا، لقد اعتقدوا أنها مريضة.

قال هيكل. لكننى بصفة شخصية كنت أحب رؤية هذا المشهد.

بدا خالد عمر مذهولا من هذه السخرية:

- أرى أنك رجل متطرف فى افكاره. وأنا أحب ذلك.

- لماذا أوجد فرقا بين جنون اصدقائى، وجنون الآخرين؟

قال خالد عمر وهو ينفجر ضاحكا فهمت

لكن ضحكته هذه المرة لم يكن لها صدى بين زبائن المائدة المجاورة. لسبب
غامض، فكل الزبائن قد بدوا فى حالة شرود ، لانه لم تمر أى امرأة أمام المقهى
منذ قرابة ربع ساعة..

(٦)

بدا الصمت الذى ساد الفصل مربكا من خلال صوت متميز استطاع عرفى أن يعرفه دون أن يرفع عينيه. انه أحد التلاميذ، يجلس فى المقعد الاخير يقزقز لب البطيخ المحمص، منذ لحظة، تردد فى أن يتدخل خشية أن يثير انتباه التلاميذ الآخرين الذين أثقلهم حر الظهيرة المميت. فهو دائما مستعد لأن يثور عند أقل حركة ، لاشك أن الشراهة الصاخبة لهذا الصبى الجرىء تمنعه أن يركز، لقد تشتت إلهامه، إنه فى حالة كتابة نص الإعلان الذى يمتدح منجزات المحافظ. والذى يود هيكل أن يعلقه على حوائط المدينة. وتحت مظهره الرقيق والهادئ، ابتهج داخليا وهو يقوم بصياغة المديح لتلك الشخصية المعروفة ، فهذا العمل المهم، بالمعيار الذى يكتب به، يأخذ شكل خطبة عصماء مخصصة للقراءة فوق مقبرة بطل همام. كان عرفى مقتنعا بمهمته كمداح، والتي جعلته يؤمن بكل التملقات الحمقاء التى يوجهها للمحافظ، ولطيبة قلبه، راح يضخم كل السمات والفضائل الخيالية مستخدما كل التعبيرات التى تستخدمها الصحف حين تمجد المجرمين المعروفين، الذين خاضوا الحروب العديدة بلاوعى .

من جديد، أصاب الصوت الساخر اذنه، توقف فى وسط جملة، ثم رفع رأسه، وبدا كأنه قد قرر أن يضع نهاية لهذا التلميذ العاصى أثناء حصص الظهيرة المقدسة.. لمح المذنب بعينيه، انه «زرطة» المرعب، غلام فى الثانية عشرة من عمره، شخص لايباريه أكثر عباقرة الكذب فى هذا القرن. هنا تساعل عرفى عما إذا كان لديه فى الفصل وزير من حكومة السلطة. لاشك أنه كى يتخلص من سطوة كذبات

هذا الطفل ستكون خطئا قديرا . كان عرفى يعرف أن ليس عليه سوى أن ينتظر إشارة لكى يستيقظ من غفوته ، أطلق التنهيدة بصبر نافذ لسلك تلميذه. ومن قمطره القائم فوق المنصة حيث يسيطر على الفصل الذى يوجد به عشرون ولداً وبناتا من السادسة الى العاشرة - انكفئوا ينسخون فى كراساتهم بعض اسماء الإشارة المكتوبة فوق السبورة السوداء .. هذا الامتحان كان اختياريا، انكفأ أغلبهم على مقعده، لا يحسون بطعم الحرص على المعرفة، والسبب هذه الحرارة الخائفة. كأنهم مضربون ومتبلدون، تركوا الذباب يملأ وجوههم بلا مقاومة. فالفصل جزء من مسكنه الواقع فى الدور الأسفل لمنزل قديم يشغله عرفى مع أمه. هذه الغرفة الواسعة بها منافذ مفتوحة على الرصيف، وتطل على حارة تجارية، وكالعادة فإن مرور جموع المارة الذين لأيرى منهم سوى السيقان، يثير عدوانية الصبية، الذين يتسلون، وقد تسلحوا بالنبال، بأن يتعاملوا معهم كأهداف، ولكن فى هذه الساعة تبدو الحارة خالية. فلا أحد يجرو أن يلقى نظرة فى هذا الحر.

أخرج عرفى منديله من جيبيه، ومسح جبهته نصف العارية بصلعته المبكرة، هذه الصلعة هى واحدة من علاماته كمدرس، لم ينقصه أبدا أن يعتنى بها وأن يلمعها وكأنها قطعة من الأثاث الثمين فى مساكن الفقراء، هناك اعتقاد فى الحى، أن سقوط الشعر دليل على الحكمة والمعرفة. تبنى عرفى هذا الوهم وهو يضع رأسه دائما فوق دماغه عندما يكون فى حضرة الآباء المشعرين الذين يتعاملون معه، كشباب بلا مستقبل، ولكنهم لم يتوقفوا عند العلامات الخارجية لعبقريته الفكرية. كان عرفى أيضا ضعيف النظر للغاية. فقد كان يرتدى نظارة من الصلب المطعم بزجاج سميك. تبدو النظرات خلالها وكأنها تمر من مرشح قوى، ناظر مدرسة أصلع يعانى من ضعف البصر، انه أكثر حرصا مما يجب حتى يكسب الثقة من جموع الأميين، اقتنع بهذه المسلمة وأن رجلا أعمى لايمكنه أن يضمرا شراً.

بالمقارنة بخارج الفصل، بدا المكان أشبه بواحة منعشة، كان عرفى يحب صفاء مابعد الظهيرة بعد أن ينام الأطفال، الذين أجهدهم الحر، واضعين حدا لتابعه، يمكنه إذن أن يتفرغ للمتعة الفكرية، فبعد سنوات قضاها فى المكاتب

المتربة، بإحدى الوزارات، انتهى بأن وجد وظيفة مناسبة لطبيعته، وطيبته، ورقة سماته، جعلته دائماً يفضل صحبة الأطفال عن الكبار. فى الحقيقة، فقد كان الكبار يخيفونه، ففى كل واحد منهم يرى قاتلاً شرساً. وعرفى فى حاجة إلى أن يحيا بلا لف ولا نوران، ولا مباحكة، وخاصة أنه قادر على الغفران. ولكن كيف ينظر للكبار؟ إنهم مملوعون بالأنانية، والغباء والقيح، والطموح الخائب والعسر مما يفضله عمن فى مثل سنه، الطموح، إنهم جميعاً معذبون بالطموح. الوصول، الوصول الى ماذا؟ ثم عندما يصلون إلى المجد أو المال، فإنهم يصبحون أوغاداً ثقلاء، وجوشاً تعج بالعجرفة، غير قادرين على الإحساس بأقل ذرة من الحس الإنسانى، أما مايعجب عرفى عند الأطفال، فهو هذا فقدان الشامل للطموح، فهم يعيشون سعادة فى حياتهم اليومية، ولا يطمحون سوى فى أن يظلوا أحياء. ولكن كم يوم هذا؟ سرعان ماتمر الطفولة ويتسرب الشباب الرائع. هذه الحقيقة الأكيدة تملأ عرفى بالمرارة.

فهو والأطفال سيصبحون فيما بعد رجالاً، وسوف يستكملون مسيرة الذئاب، وسيخرجون من حبسهم الملىء بالنقاء، ليضيعوا فى خضم القتلة الكثيرين. جاعته فكرة فتح مدرسة خاصة يوماً كرد فعل ضد التعليم الرسمى الذى يرسخ السفالة فى أذهان الأطفال، والخسة والدناءة لمجتمع عفن كنظام التعليم إنه إهانة للأحلام البريئة والساحرة لعالم الطفولة. كان عرفى يتمنى. منذ أمد طويل، أن يكون لديه شىء يقوله للأطفال. وليس الكبار فى حاجة إليه، لم يتأخر فى تنفيذ مشروعه.. وبمعاونة أمه التى كانت تساعد، من ناحية أخرى فى مهمته، خصص حجرة من مسكنه بالدور الأرضى. وأثثها ببعض المقاعد، وبسبورة سوداء وكى يعطى عمله جدية... أوصى رساما من الحى بعمل لوحة ضخمة. راح يعلقها أعلى باب المنزل، مما أثار انتباه عائلات عديدة من الحى لهذا الكهف العلمى.. وخاصة المصروفات المتواضعة التى يطلبها منهم، فراحوا يرسلون أبناءهم قبل أن يجف رسم اللوحة تماماً.. ووقعت بعض الأشياء الغريبة. فعلى عكس التوقعات، فإن الأطفال بدوا مخبولين بمدرسهم. وعاندوا الآباء والأمهات كى يذهبوا ليجلسوا فوق مقاعد هذه المدرسة الغريبة، أدهش هذا أباعهم بشدة - ويالهم من أناس طبيين

جهلاء - لم يشكوا قط في أن ذريتهم لديهم حماية التعليم. هؤلاء البائسون يجهلون أن أطفالهم يعيشون هنا في جو فوضوي يتناسب مع أنواقهم وأن عرفى نفسه رغم صلغته ونظارته الضخمة ذات الشريط الصلب، كان حكاءً خطيرا، فهو يتكلم إلى الأطفال ويبوح عن مشاعره بلغة تختلف عن لغة الكبار. كان يلقتهم مبدأ واحدا وهو: معرفة أن مايقوله الكبار مزيف ولا أهمية له بالمرّة. وهكذا ففى فصل عرفى يوجد تشكيل جيد من الأفكار العقلية لايمكن لأى سلطة أن تنطق بها، وكم أحس عرفى نفسه أنه يختنق سماع أفكار غريبة فى أفواه التلاميذ بمجرد خروجهم من الطفولة.

ها هو الصغير «زرطة» يتصرف الآن بلا حياء بأسلوبه اللفظ، إنه يبصق بقايا اللب الذى ينتهى من قزقزته فوق الأرض، هذه الأصوات أثارت عرفى، لأنه كان منهمكا فى عمله، والآن لقد حان وقت التدخل، تكلم بصوت رقيق لكنه حازم:

- هيه ... يا صغير، اذهب وقزقز لبك فى الشارع.

ابتلع «زرطة» اللبة التى كسرهما لتوه بين أسنانه وراح يتبع حركة ذبابة تطير أعلى السقف.

أمسك عرفى المسطرة الموضوعة على قمطره، ثم لوح بها فى اتجاه الطفل:

- هيه، يازرطة، أنا أتحدث إليك.

بدا «زرطة» على وشك البكاء وقد بوغت، بدا أشبه بخنزير أكل جيدا. إنه أكول نهم قادر على التهام كل مايقع بين يديه، لقد وصل إلى درجة بشعة من البدانة لاتناسب سنه، قام كى يرد:

- فى الشارع، يا أستاذ، فى هذا الجو، بشرفى أنت تريد موتى،
- هيا، اذهب، أرحل.

- ولكننى جوعان، يا أستاذ، فأنا لم أكل منذ ثلاثة أيام.

قال عرفى وهو يهز رأسه: حفضلك الله، ماذا ستصبح بلا كذب، للأسف،
سوف تتركنا قريبا، فقد أصبحت رجلا.

بدا هذا التلميذ من الأستاذ لزربة قاسياً وظالماً، تملل، لصق يديه على بطنه. كأنه يحاول أن يُخرس الجوع الذي ينهشه، قال منتحباً:

— لماذا تشوه سمعتي يا أستاذ. ماذا فعلت كي أستحق هذا؟

توقف التلاميذ القلائل ، الذين كانوا ينسخون الكلمات المكتوبة على السبورة السوداء في كراساتهم. عن عملهم، أما بالنسبة للآخرين، فقد استيقظوا وهم يتتبعون ويشرعوا في تأمل زميلهم، الذي أصبح هدفاً للمدرس، شرح عرفى بهدوء:

— سأقول لك لماذا يجب أن تتركنا. أولاً لأنك أصبحت بدينا ثم لأنك تكذب مثل الرجال الذين أصابهم الثراء ، لايهمنا أن يكون لدينا شخص مثلك بيننا. فكذلك لايمكن أن ييقنك هنا أبداً. لقد حان الوقت كي تغشى العالم. الآن كف عن قزقة هذا اللب. عليك أن تنام مثل زملائك.

عانى زربة. ففكرة ترك المدرسة قد أثرت فيه بقوة: النوم لايفلبنى. ولكن أعدك ألا أقرقز اللب. لقد قطعت شهيتي يا أستاذ.

قال عرفى: أرجو أن يكون هذا للأبد.

بدأ بعض التلاميذ في تأمل زربة وهو يكاد أن يصل إلى حد الترهل. ثم طلبوا منه بكل جرأة أن يشاركوه لبه، فساعت الأمور وأصبح على عرفى أن يضع حداً لهذه الفارة المفاجئة، وهو ينطق بالجملة الحاسمة التي يستخدمها في مثل هذه الحالات:

— إذا لم تلتزموا الهدوء، سوف أطردكم جميعاً وأغلق المدرسة..

وكأنه هدهم بالموت، أحدث التهديد أثره. وفي الحال ران صمت في الفصل، واستطاع عرفى أن يعيد صياغة نصه. فانتهى منه. أحس بالمتعة لأنه أتقنه، وردد بعض الجمل للتأكد من معناها اللغوي، والصفات المفرطة وهي مطبوعة ومعلقة فوق جدران المدينة. إنه نداء من ميت، لقد توغل عرفى في أغوار الفكرة التي أسفرت عن عقل هيكلي: من أجل خدمة الثورة، فإن السلاح المرعب هو السخرية. والسخرية عند عرفى سائدة في كل مكان. فهو منذ بضعة أشهر يعاني من جرح دام يطفى على طبيعته المأثورة. أعتقد أن أي سخرية لايمكنها أن تخفف

عنه: فقد أصبحت أمه مجنونة، وتحولت إلى نوع من الكاريكاتير البشرى. ومنعه إشفاق البنوة أن يتصرف كساخر على هذا الوجود المخيف، فإذا كانت هناك امرأة أو أم مليئة بالرقعة وإنكار الذات. فلماذا هذا الخداع؟ أمام هذا الجسم الواهن، والوجه المثير للعاطفة الذى يبدو كأنه يفوح يوماً وراء يوم أكثر فى العتمة، لم يحس بالقدرة على الضحك. أجل، إنه فى بعض اللحظات، يتخلى عن روحه الساخرة، ويسقط فى هلع الصخب القادم من أعماق الخلود ويحس أنه : سيفقدتها عملاً قريب، سوف تسكن فيه المعاناة كاملة. وسيفقد حسه الساخر شيئاً فشيئاً، وسيصبح فريسة للنحس واليأس. فالإنسان مسكين حقاً، غير جدير أن يبلغ مدارك الطفولة التى يحبها كثيراً، أحس أن لديه الشعور بالخيانة ليس فقط بعقله النقى. ولكن تجاه هيكل ومجموعته الساخرة، فرغم أن هيكل ينظم هذا الموضوع الأبكم الأكثر اكتمالاً، فإنه مخنوع بالتأكيد، فلا شيء ينفلت من الرقعة البادية التى تبدو فى نظرتهم وكأنها تخلصك من كل الشوائب الفاسدة فى روحك، وكأنه من الأفضل أن تغلفك بحبها المتكابر، لم يساوره أى شك فى أن هيكل يريد أن يراه يسخر من جنون أمه. انتظر منه هذا الدليل الأكيد، وكأنه يبلغ شرفاً كبيراً، أو نوعاً من المنعة الخارقة . إذن لماذا يبدو مغموماً ؟ هل بسبب جنون العالم، فى كل لقاء يسعى عرفى أن يكتشفه وهو يراقبه . إنه موقف سخيف ومشين ، حيث يملك هيكل أسلوباً جميلاً وهو يبدو طيباً وكأنه أخ . بينما عرفى ينكدر من وساوس العالم القاسية .

دقت خطوات فى المر ، رفع عرفى عينيه نحو باب الفصل، بقى متجمداً لثوان. منتظراً قلماً ، توقع رؤية أمه. فى مكانها رأى كريم فابتسم له، تخفف رد الشاب على ابتسامته بحركات تعنى أنه ليس لديه ما يزعجه وأنه ينتظر أن يكلمه فى نهاية الحصة، ثم وبخفة، توجه على أطراف أصابعه نحو مقعد وجلس إلى جوار فتاة صغيرة صبغت شعرها باللون الأحمر الطوبى، وترتدى فستاناً برتقالى اللون ، فبدت كأنها ثمرة غريبة الشكل، كانت جميلة وقد اعتاد كريم أن يغازلها . احتفظت الفتاة الصغيرة بعينيها منخفضتين وتصرفت كأنه غير موجود. داعب كريم شعرها، وأحنى نحوها وهمس فى أذنها بنبرة عاطفية:

- إذن، فأنت تتعلمين ياروحى؟

لم ترد الفتاة الصغيرة، كشرت ، وأدارت رأسها وكأن ذبابة حلقت حولها،
أكمل كريم:

- ماذا هناك، هل هو خصام أم ماذا؟ ردى ياروحى.

قالت الفتاة، دون أن تستدير بصوت منخفض ومبتهج:

- أين الهدايا التى وعدتنى بها منذ فترة طويلة يا «بكاش»؟

انتحب كريم بسخط ظاهر:

- هكذا النساء. كنت أعتقد أنك تحبيننى لذاتى. أه. كم أنا بائس.

واستند على القمطر ورفع يده إلى جبهته وأطلق تنهيدة عميقة. وهو يراقب
الفتاة من طرف عينيه. وانتظر أن تتبعه ولم تتأخر. أحس بالفتاة تتحرك ثم راحت
تلمس ذراعيه وقالت فى نفس واحد: لكن أنا أحبك.

أحس كريم بالبهجة داخلها. فهذه الملهاة العاطفية يمكن أن تجعله سعيداً،
فالنساء مهما كن، فى السابعة أو السبعين، حساسات لنفس التملق، والزمن
لا يدخل فى الحساب. يمكن اغواؤهن بنفس الطريقة، داعب شعر الفتاة الصغيرة
ويحركة رقيقة متناغمة، ثم ألقى نظرة على الفصل. بدا له أنه من الرائع أن يجلس
ممدداً فوق مقعد المدرسة، وأحس أنه يتصرف كتلميذ. فتح كراس الفتاة الصغيرة،
ثم بدأ فى الكتابة. بحروف كبيرة مثلاً شعبياً عن وجود البشر: «علمناهم الشحاتة
سبقونا ع الأبواب»، كتب كريم الجملة عدة مرات على طريقة تلميذ بليد. لقد نسى
سنه، وسبب حضوره إلى هذا المكان، ولم يفكر سوى فى الفتاة الصغيرة التى
ترقبه جامدة، لم ترفيه سوى تلميذ ذكى.

ظل هكذا ربع ساعة قبل نهاية الحصّة. ولكن عرفى اختصر الجلسة:— هيا
يا أطفال، أنصرفوا.

احتج بعض التلاميذ الذين استيقظوا مبغوتين الوقت لم ينته بعد يا
أستاذ.

تدخل عرفى: لا اعتراضات. لقد رأيتمكم بما فيه الكفاية اليوم.

انتهى الأمر بالتلاميذ، وقد أحسوا بموات روحهم ، حاولوا أن يبذلوا ما بوسعهم بأن جمعوا متعلقاتهم وتركوا الفصل، ومع ذلك لم يذهبوا بعيدا، تناثروا فى الحارة باحثين عن ركن ظليل. على مقربة من المدرسة، وما إن غادر آخر تلميذ، حتى نزل عرفى من فوق منصته واستعجل اللحاق بكريم، الذى لم يغادر بعد مكانه. قال وكأنه يعتذر:

– ألن أجمعك تنتظر طويلا؟

صاح كريم : ليس لىّ ما أفعله. لكننى متلهف لقراءة نصك، أتمنى أن تكون قد انتهيت منه .

رد عرفى، وهو يخرج ورقة مطوية من جيب سترته الداخلى ويمدها لكريم:

– حالا ، امسك .. واقرأ.

– هل أنت سعيد؟

– إنه جناب المحافظ الذى يجب أن يسأل هذا السؤال. فلست سوى كاتب متواضع لسيرته.

وكانه يريد أن يتمتع تماما بهذه اللذات التى سببها هذا النص. بدأ كريم فى اتخاذ وضع مناسب. ثم فرد الورقة. فما قرأه قد جعله تقريبا معتوها. يقال إن عاصفة قد هبت عليه. اهتز بضحكة مجنونة لا مثيل لها. أما عرفى فلم يتوقع مثل هذا النجاح. أحس بفخر شديد. اندهش قليلا. فبعض الأطفال، الذين فوجئوا بهذا الضحك الصاخب، انطلقوا من ظل المنازل وجاعوا كى يتأملوها فى الدور الأرضى. وعند رؤية هذا الشاب الوجد، تأهب الجميع للسخرية، هداً كريم بسرعة، وراح يجفف عينيه من دموع الفرحة التى ملأت خديه ووقف أمام ناظر المدرسة. قال وهو يسيطر على ضحكته :

– إنه أمر شديد السخرية. فبالإضافة إلى صورة وجهه. سيكون الإعلان

مثيرا.

سأل عرفى : هل يعجبك حقا؟

– إنه بكل بساطة متوحش، أريد أن أريك إياه مطبوعا .

- هذا شأنك. لكن أخبرني : هل صحيح أنك تعلمت الطباعة؟

- إنها مجرد صدفة. أنت تعرف أنني قد تعلمت بضعة أشهر في مجال الطبوغرافيا في مطبعة. في الفترة التي اختلطت فيه بالناس، وهكذا مارست مهنة عديدة.

جلس عرقي فوق مقعده، مدد ساقيه التي أصابها تنميل من يقائها في غير حركة، ثبت ناظريه على حذائه الرث وأحس بشيء غريب، فواحدة من الفردتين أطول من الأخرى، ولبرهة غزا روحه غموض لهذا التباين، ثم عاد إلى رشده وبكل مودة. وضع يده على كتف الشاب، وقال:

- أنت صغير جدا، وتريد أن تدافع عن مصالح الشعب، أليس كذلك قد يقودك هذا إلى السجن.

لم تكن تلك هي المسألة. ولكنه أمر بسيط. لقد زعم أن الدفاع عن مصالح الشعب يمكن أن ينتهي بالمرء في السجن. رد كريم:

- طبعا. ولكنني لن أندم. لأنني في السجن اختلطت بالشعب. أنت تفهم أنه في مصنع ما يعامل البشر كالحوانات. فليس لديهم الوقت للحديث مع زملائهم، من ناحية أخرى، فإن موضوعات الحديث الوحيدة تتعلق بالعمل، أو بالبلاد الفقيرة أو المرض الذي يبذر المصائب في الأسر، لاشيء سوى الموضوعات الصعبة، بينما في السجن هناك وقت فراغ إنهم يتحدثون من أجل متعة المعرفة. إنه لأمر غريب. لكن السجن أقل بشاعة من أي مكان آخر أنت تعرف أنه قبل الذهاب إلى السجن كنت أؤمن أن الشعب ذا طبيعة عبوسة وأنه لا يعرف سوى المساةة؟ لم أكن أعتقد قط أنه ملء بروح الفكاهة. وملء بخفة الظل. أجل اكتشفت هذه الحقيقة الأساسية لشعبنا فقط في السجن. وعرفت أن كل أفكارى عنه كانت مزيفة.

وبصفته مفكرا جديرا بهذا الاسم. كان عرقي أيضا في شبابه مناضلا من أجل مصالح الشعب. لكنه أخفى مشاعره وخجله ورعبه عن الناس، فابتعدت عنه أنظار الشرطة لأنه لم يتميز بمظهر الثوريين رغم حماسه للثورة فلم يعرف السجن قط، ولهذا السبب، فإن تجربة كريم تسمح له أن يتعلم بعض الوقائع

المجهولة بالنسبة له. أثاره فضوله. زاد من ضغط يده على كتف كريم وكأنه يشجعه على متابعة كلامه.

- قص على هذا.

رد كريم: حسنا. لقد رأيت الشعب الذى أرغب فى رؤيته. بمعنى أنه معجون بالحقد ويحلم بالانتقام. أردت أن أساعده فى انتقامه. كنت أعتقد أنه مستسلم للقهر. لكننى وضعت فى حسابانى أنه أكثر حرية منى. لايمكن أن تتخيل النكات التى ألفتها عن هذا الموضوع. عندما أردت أن أشرح لهم أننى فى السجن لأسباب سياسية. كانت كارثة. اعتبرونى روحا ضئيلة أنا الذى كنت أفكر أن أعلمهم موقفى الثورى. عاملونى كعميل مدسوس من الحكومة. علمتهم الاحترام الشخصى. ظلت الحكومة بالنسبة لهم مصدرا للمزاح. وبكل ذكائى تعاملت مع الحكومة بجدية. ووجدت أن هذا عيب مع مظهره كشهيد بالطبقة العاملة كنت الوحيد الذى يعامل الحكومة بجدية.

علق عرفى: إنها ضربة صلفة لغرورك. اعتقد أنك كنت هناك بالغ البؤس.

- فى البداية نعم. ثم بدا لى موقفى فى قمة درجات السخرية. بدأت فى السخرية من كل شىء. فى النهاية أصبحت منشرح الصدر. فهناك شىء يبعث على الضحك. عليك أن تصدقنى. فتنوع هؤلاء الأشخاص الذين نقابلهم فى السجن شىء لا يصدقه عقل. كل هؤلاء الناس لديهم عن الحكومة أفكار عجيبة. فالحكومة بالنسبة لهم عبارة عن عصابة من اللوطيين. لذا كنت مندهشا لكل ما أسمع من حولى.

- هل كان السجن بالنسبة لك تجربة فاصلة؟

- هكذا كانت البداية. لأننى قابلت «هيكل» فيما بعد.

كان لاسم هيكل عند عرفى مكانة رفيعة. لذا سحب يده من فوق كتف الشاب وانشغل من جديد فى تأمل حذائه الرث. ففكر فى المتعة التى على هيكل أن يحسها وهو يسمع اعترافات كريم حول إقامته فى السجن. هذه الحكاية ترد بالتأكيد على حاجته الأبدية للسخرية. فقد رفض عرفى أن يترك نفسه تحت تأثير سحر الهزل الغريب لهذا العالم. خاصة أنه يكافح ضد غواية الإعجاب به. لقد كان

يعرف جيدا أن العالم محكوم بأغبيائه ومجرمييه الذين يجب عدم الاعتماد عليهم. ثم إن هذا لا يشكل له أية رغبة، ولا أية متعة سرية، لقد أحس بمرارة شديدة لهذا الموقف. وعلى عكس هيكل، فقد حاول أحيانا أن يعثر فى دوافع البشر على بعض الأمور الجادة أو العادلة، وللأسف فإن الدلائل تبدو ماثلة دائما أمام هيكل، وقد ينتصر إحداهما فجأة، لذا ليس عليه سوى أن ينتصر. لقد صدم عرفى وهو يفتش دوما فى كافة الأنشطة المنحرفة والفاصلة، وكأنه يخشى أقل شيء حسى متأصل داخل هذه الأقنعة البهيجة، أن يصدىم بهجته. كان عرفى مجروحا دوما بهذه الأشياء الواهية. وهذا الأمل الذى يحتفظ به رغما عن كل شيء، يحكم عليه بعزلة روحية وسط زملائه، إنهم رجال أحبهم وأعجب بهم، أخيرا، قال:

- هل نكتفى إذن هذا المساء؟ هل تعتقد أنه يمكن أن يحدث شيء آخر؟

رد كريم: سوف أطبع مايكفى كى نستطيع أن نبدأ هذه الليلة فى لصقها على جدران المدينة. علينا أن نذهب حالا. سوف تساعدنى فى تصحيح البروفات.

- أين توجد المطبعة؟

- فى مخزن يقع فى حى الجمرك، يملكه خالد عمر. سوف يلحق بنا هناك

مع هيكل فى المساء

- هل سيأتى هيكل أيضا؟

- بالتأكيد، يجب أن يعطينا آخر التعليمات. هل تعرف أن هذه ليست

سوى البداية، وأن هناك مشاريع أخرى فى رأسه؟ لم أتم طيلة الليل وأنا أفكر فى كل هذا.

منع حماس كريم تجاه هذا العبرى «هيكل» أن يظهر فى وجه المدرس

بعض الحزن. فقد كان بالغ السعادة أن يشترك فى هذه العملية الخداعية الضخمة. فلم يعد هناك شيء آخر مائل أمام عينيه.

قال عرفى: هناك أشياء لا أفهمها جيدا فيه.

- عمن تتكلم؟

- عن هيكل، اسمعنى. أنا أول من يعرف قيمة هذه الإعلانات تريبويا.

لكننى أتساءل اذا كان هيكل يناضل ضد المحافظ فعلا. وبماذا لايجد هيكل فى المحافظ باعثا أساسيا للبهجة ، هل يمكن أن ترد على هذا السؤال؟
- مايهما هو أن يُهاجَم المحافظ أولا، هذا هو هدفنا. نحن لاننشد سوى المزاح. اليس هذه فكرتك؟

- معذرة يا أخ كريم. لكن يجب أن ننسى الضحك أحيانا. أعرف أن هذا ضعف. لكننى لا أستطيع شيئا.

ورغم أنه قاوم التفكير فى هذا الأمر، فإن كريم لم يكن يجهل شيئا من المتاعب التى تثير روح المدرس الحسية. فقد أصبحت أمه مجنونة.، وهذا ليس فى الواقع سوى حالة من المتعة. لقد فهمه كريم جيدا، كل مايهمه ألايجد نفسه فى حضرة العجوز المجنونة؛ إنها تخيفه. وعندما يأتى إلى عرفى. فإنه فى كل مرة يستخدم كافة الحيل كى لايقابلها فى طريقه. كان لديه الإحساس أنها هناك تراقبهما. راح يسعل كائنه يستشعر اقتراب الخطر. ورغما عنه، أدار رأسه نحو الباب، وسرعان ما رآها. إنها صورة العجوز المجنونة أمام عينيه .. كانت هناك واقفة أشبه بخيال مائة على الباب. امرأة عجوز تبدو كأنها هيكل عظمى، لكنها تخفى ملامح غامضة من الفتنة. كأنها لم تأكل شيئا منذ أمد طويل. كانت تقضم كسرات خبز، وترفض كافة الأغذية الأساسية. بدت زائغة العينين، شعناء الشعر، تأملت الفصل الخاوى من التلاميذ، والمقاعد الخالية، تجاهلت تماما ابنها والغريب الذى معه. والحظة ظل كريم مذهولا، معتقدا أنه يرقب حية. ثم قام بطريقة آلية، وحيا ذلك الهيكل المتجرد من اللحم الواقف على عتبة الباب بصوته الضعيف.
احتفظ عرفى بهدوئه. وأشار إلى كريم. وقد ثبتت عينيه الضعيفتين اللتين تكادان أن تبكيا على ذلك الكائن الغريب الذى ظهر.

تقدمت العجوز نحوهما واثقة فى نفسها، وقد تملكها فكرة قديمة لسلطة الأمومة، فكر كريم أن يهرب، لكنه أدرك أن الوقت قد تأخر، لم تكن لديه رغبة فى المزاح، وهو واثق فى هذا، هتفت العجوز:

- أين ذهب الأطفال؟

ثم أضافت وهى تنظر إلى كريم بارتياب: لم يبق منهم سوى هذا،
ويخطوة متأهبة اتجهت نحو المنصة وجلست فوق القمطر، وأمسكت بيدها
البارزة العظام المسطرة، ثم أشارت بها نحو كريم:
- هيا، يا صغيرى، سمع لى درسك.

كان هذا هو الجحيم بالنسبة لكريم، ألقى نظرة توصل إلى عرفى. نظرة
رجل يفرق، ويحب الحياة كثيرا حين يموت، ولكن ضد كل التوقعات. لم يعر عرفى
أى انتباه لاضطرابه. فارتدى قناعا جامدا وبدأ يتابع المشهد ببرود وكأنه شخص
غريب. أربك موقف المدرس «كريم» إلى أقصى حد. فهل ينتقم منه عرفى وهو يتركه
هكذا فى خضم هذا الجنون؟ أم كان ينتظر منه أن ينفجر ضاحكا مثلما اعتاد أن
يفعل مع كل شىء؟ بالتأكيد، إنه يتحداه، هذا هو الأمر، ولا شىء عداه.
أخيرا. فى نهاية تلك الأبدية. قال عرفى بصوت بالغ المودة خال من
الدهشة:

- أخلى إلى النوم يا أمى.

لم تبد العجوز كأنها سمعته، تمسكت بموقفها.

- هيا يا صغير. أنت تعطلنا؟

فهم كريم فجأة أنه كى يخرج من هذا الفخ، فعليه أن يلعب لعبة، وإلا يخيب
أمل العجوز. تذكر نسا وطينا حماسيا تعلمه فى طفولته. راح يتلوه بصوت أجش
وهو يجلو حنجرته مرات عديدة.

راقبتة العجوز بعينين زائفتين، كأنها تتمتع بهذا النص. ورغم منظرها
كساحرة، فإنها احتفظت بسلوك مدرسة فصل واعية لمهبتها. قالت عندما انتهى
كريم:

- رائع. أحبيك. لقد تقدمت عن آخر مرة. سأقول لأبيك إنك تستحق النقود

التي يصرفها عليك.

انحنى كريم عدة مرات، وكان ثناء العجوز المجنونة ثقيل جدا على خجله، أحس بخيلاء جامد سيطر على الموقف، نظر الى عرفى بابتسامة منتصرة، وكأنه يسجل بذلك تحديه وكشف عنه بشكل مبهج.

إنها الحقيقة التي يعانى منها عرفى. فجأة لم ير شيئا ، فاعتقد أن العمى أصابه، تلزمه لحظة كى يفهم سبب هذا العمى المفاجيء، فالتأثر قد ملأ عينيه بالدموع التي تخفى ألما كبيرا. امتلأ زجاج نظارته بالبخار، رفعها ومسحها بمنديله بطريقة محسومة، وقلبه يخفق بشدة، رأى وهو يعيدها إلى مكانها أن بطلى رواية هذا الكابوس المهييب موجودان دائما فى مكانهما، ساكنان صامتان، وكأنهما ينتظران منه - ومنه وحده - أن ينهى المشهد. أسرع نحو القمطر، وأحاط كتفى أمه بذراعيه، ودفعا فجأة، واصطحبها نحو الباب، تركته المجنونة العجوز يفعل وبدت كأنها نست كل شيء، وهى تمر على مقربة من كريم ولم تنظر إليه، رمش كريم لآخر مرة ، ولم يتحرك إلا بعد أن خرجا من الفصل.

لم يبق وحده طويلا، فقد عاد عرفى بسرعة، وقد بدا متأثرا، قال بصوت جامد:

- أرجو أن تعذرنى، فأنا عصبى فعلا.

الآن ابتعدَ الخطر. واستعاد كريم بهجته، رد بصوت لهيج :

- لا عليك. كنت اتسلى. وكنت أستعيد الزمن.

رد عرفى: إنها غلطتى، كان يجب أن أحبسها بالمفتاح فى غرفتها، لكن لم تواتنى الشجاعة.

قال كريم: لاتفعل شيئا كهذا، اسمع، هل تعرف أن شيئا رائعا قد حدث لى. لم أكن أجيد حفظ هذا الدرس وأنا صغير. وهذا هو ما طرأ على ذاكرتى، أجد هذا رائعا. ما رأيك؟

لم يود عرفى أن يرد، قال بكل بساطة:

- الا تود أن ترحل؟

(٧)

أحسا بوطأة الحر الشديد عندما عبرا الدور الأرضى إلى الشارع الملتهب. رفع كريم سترته ووضعها على ذراعه. ثم فك أزرار ياقته. ورفع أكمامه. ثم اتخذ هيئة رجل رياضى، لم يتبعه عرفى فى الممر. فهناك الكثير من أولياء الأمور فى الناحية. مما لايمنع أن يفعل مثله، مشيا متباعدين، لأن أقل ملامسة يمكن أن تصبح غير محتملة فى هذا الجو الخائق، توجهها نحو دروب حى الجمرك مخترقين عددا كبيرا من الحارات الخاوية، التى توجد بها محلات قليلة، مفتوحة. وبدخلها التجار. وقد وضع كل منهم منديله على وجهه كى يحمى فمه، وقد تمددوا فى فترة القيلولة فوق مقاعدهم، بدأ هؤلاء النيام أشبه بجثث هامدة فى كل مرة يستدير كريم وهو يرتعد. وعلى مسافة أبعد. هناك أطفال نصف عراة يلعبون فى برك المياه. التى تنثرها رشاشات البلدية. راحوا يتقافزون بفرحة وهم يلقون لكريم دعايات حول أمهاتهم، انتزع هذا الحادث التنهدات من الشباب. ووجد أن هذا الجيل الجديد من الأطفال يفتقد المهارة الحقة فى السباب. وأرجع هذه الخيبة لحساب النظام الجديد. ولكن الحرارة منعتة أن يركز فى أفكاره المحزنة. أسرع بالهروب من هذا الفرن. فعجل الخطى وهو يجر عرفى فى طريقه.

وبعد عشرين دقيقة من هذه النزهة الهذيانية . هبت نسمة تعلن اقتراب البحر، وراحوا يرون ، عبر فتحات المباني، السفن الراسية على الرصيف، نائمة وساكنة فوق مرساها، توقف كريم أمام مبنى قديم مدهون باللون الأصفر وأخرج مفتاحين من جيبه، وفتح القفل الذى يغلق مصراعى باب ضخم، ثم قال لعرفى:

- ادخل.

ها هو المخزن الذى وصفه خالد عمر بين أيديهم يضم كمية ضخمة من مختلف البضائع. وعددا لا يحصى من الحقائب والخزائن المكدسة على الحائط. من الأرض وحتى أعلى السقف. عليهما أن يتخلصا من البضائع كى يخرجها المطبعة ذات الذراع المعدنية التى تلمع فى الظلام. لم تكن الناحية التى تم تنظيفها بكافية الاتساع. وأحس عرفى أن كل هذه الخزائن سوف تسقط على رأسه. تقدم بحذر وقد ثبت عينيه على الكوة الوحيدة المحفوفة بسياج، يسقط عنها ضوء خافت، إنها دليله الوحيد فى هذه العتمة الشديدة القادمة بعد الانفجار الأعمى من ضوء الشارع ، وعندما وصل إلى أسفل الكومة رأى أنهم وضعوا، لخدمتهما، مائدة ومقعدين، وفوق المائدة لاحظ خزانة مليئة بالعديد من المطبوعات. جلس فوق أحد المقاعد. وهو يمسح وجهه بمنديله، وأعجب بالشكل المعدنى. الذى يبدو أشبه بحيوان اسطورى وسط هذا الركام من البضائع.

دار كريم حول المطبعة وقد بدا أشبه بطفل يتسلى. وهو يمسك لعبة معقدة، استدار نحو عرفى، قال بكبرياء شخص أصابه الثراء فجأة:
- إنها رائحة. أليس كذلك؟ إنها تقريبا جديدة ، لقد بدا خالد عمر غنيا، فهو لم يبخل بالنقود.

قال عرفى: اعرف . عليك أن تخبرنى عن الطريقة التى أساعدك بها.
- ستساعدنى حالا على صياغة الملامح العامة. سوف أشرح لك كيف نتصرف، ليست الأمور صعبة، لكن أولا ، يجب أن أضيء النور. فلا أرى شيئا هنا.

وتوجه نحو مفتاح الكهرباء أضاء مصباحين بلا غطاء معلقين فى السقف بجبل، فالتقيا ضوءا متدفقا راح ينثر درجة ما من حرارة الخارج. قال كريم وهو يقترب من المائدة، ثم وهو يجلس على المقعد الآخر:
- هيا.

رد عرفى: تحت أمرك.

وصل هيكل فى التاسعة مساء بصحبة خالد عمر، كان هناك أكثر من خمسمائة إعلان تصور وجه المحافظ بالزى العسكرى، مكدسة فوق أرض المخزن. كان التاجر يرتدى بدلة خضراء ذات أزرار ورابطة عنق حمراء تعكس تأثيرا مهيبا، فاحت رائحة البنفسج أكثر من ذى قبل. تقدم نحو كريم، وأمسك الشاب بين ذراعيه، وقبله على وجنتيه وهناه على مهارته، امتلأت دهشته بصدى عميق للصمت الذى سيطر على حى الجمرك فى هذه الساعة من الليل.

– هل فعلت كل هذا ؟ بشرفى. أنت عبقرى.

توقف خالد عمر عندما رأى « هيكل » يبدأ فى قراءة نسخة من الإعلان بصوت عال ، وهو ينطق كل كلمة بحذر ، وكأنه يتلو صلاة الجنازة ، لم يستمع خالد عمر أن يكبت مشاعره وهو يسمع المديح الموجه للمحافظ ، هز رأسه بطريقة حمقاء ، ووضع يديه على صدره وكأنه يعانى من اعتلال مزاجه ، فى الحقيقة لقد بلغت درجة المكر القاتلة من هذه المهزلة الماكرة مداها ، وراح يهنئ نفسه بأنه واحد من المؤسسين . قال هيكل عندما انتهى من القراءة .

– هذا البورتريه بليغ بما فيه الكفاية. وأنا أنحنى أمام كاتب التعليق. سوف ينتحر صديقنا المحافظ.

ولأول مرة منذ أن دخل المخزن، نظر إلى عرفى.

تلقى عرفى التهنية بشيء ما من الامتتان، وكأنه قادر على أن يساهم دائما فى متعة هيكل الذى تصوره مذنباً، وفى نفس الوقت أن يخون القضية التى يعمل فى خدمتها، ابتسم كى يبين حساسيته لظهور هيكل. ولكن هذا بدأ يخترق المرارة الماثلة خلف هذه الابتسامة. اكتسى وجهه بتعبير ملء بالتجهم، بدأ يفكر للحظة. ثم اقترب من ناظر المدرسة.

– أنت تعرف كم أحبك، يا أخى عرفى. ولكننى اعترف لك أن فىك شيئاً ما يقلقنى. هل أنت مريض؟ كم ساكون أسفا.

أحس بكل وضوح، أن عرفى متأثر ومرتبك. لكنه سرعان ما تماسك. وفهم أن هيكل يببى تلميحا وهو يستعلم عن صحته. وأنه بشكل غير مباشر، يسأله عن

أخبار أمه، هذه الأم التي أصبحت سببا لعذابه، لا، لم يستطع هيكल أن يتعرف حقيقة نواياه، فهو يراها دائما واضحة، في كل مرة يأتي إلى بيته، لا يفوته أن يزوره في حجرة العجوز، قيل إنه لا يأتي إلا من أجلها، إنه يكتسى دائما بهذا الشكل المهييب الذي يتخذه خلال هذه اللحظة، لكنه يتصرف نحو المجنونة بأدب جم، ويتكلم كسيد مهذب، إنه شيء غريب فالمجنونة تتصرف بغرور وتبنو متأنقة وتتأديه بالأمير، إنه أمر غريب لا يستطيع عرفى أن يدرك آليته ويتذكره بخوف غريب، انتهى بأن تسأل إذا كانت عاطفة هيكل تسير في مجراها الطبيعي، وهل هو نفسه مجنوننا؟، أجاب.

- أنا على مايرام.

تأمله هيكل ومع ذلك تبدو بالغ التعب.

- لقد عملت كثيرا، أنت تعرف أنني أدير المدرسة وحدي.

- أفهم، ولكن لماذا هذه المرارة؟ ياعزيزى عرفى أنت تعرف شعورى

نحوك، ولا أحب أن تكون بيننا أقل شائبة من الغموض.

- أين ترى المرارة؟

- سلوكك ليس هو نفسه، فأنت تعطينى الإحساس أنك لست على مايرام.

هل تجد نفسك متوافقا مع مشاريعنا؟

قال عرفى وقد بدا عليه كأنه تلميذ يشوبه الفتور: أنا أشاركك أفكارك

تماما، لو كانت المرارة تبدو على فإنها لا تتعلق بمشاريعنا، بل بأمر شخصى.

- إذن اسمعنى، هذه الإعلانات التى ستعلق فوق جدران المدينة سوف تثير

الدهشة، وسوف يتساءل رجال النظام عما إذا كانت هذه الإعلانات ليست من عمل

المحافظ، سيكون هناك خلط مرعب، سوف نملا أركان المدينة بهذه الإعلانات، ثم

نطبع المزيد، وبدءا من الآن، نحن مكلفون لعبادة المحافظ، وسيبدو هذا فى حديثنا

الى الناس، هل يمكن أن أعتد عليك؟

لم يكن أمام عرفى وقت للرد، لأنه سمع فجأة ضحكة حادة انطلقت من

خالد عمر، الجالس فوق مقعده، لقد سمع هذا كريم وهو يعيد عليه قراءة نص

الإعلان، لم يتمالك التاجر نفسه وهو يسمع هذا التقريظ، وراح يكرره فى كل لحظة

لصديقه الذى بدأ سعيدا بإرضائه. نظر عرفى إلى كريم وتذكر مشهد المدرسة بين الشاب وأمه، وأحس بالخزى. فهل سيحكى كريم عن هذا لهيكل؟ بلا أدنى شك سوف يتصرف كمنتصر. أحس عرفى بالبرودة فى قلبه. إنه لا يمكن أى مرارة ضد السيد هيكل. وإعجابه به يمكن أن يجعله يضحى بحياته لمثل هذا الرجل. هيكل كما هو دائماً، بسلوكه وأساليبه الراقية. لم تززع أى مأساة شخصية بروده الشديد. رفق عرفى فى تناقضه الرائع المؤسى. أحس أنه وحده على وشك أن يتعلق بطرف هذا العالم الهزلى المبهج. حيث تساعل هيكل. وماذا لو أن هذا الخيط تمزق؟ سأل هيكل موجها كلامه إلى كريم:

- هل استعدادت لهذه الليلة؟

رد كريم: نعم، كل الاستعداد. لقد واعدت بعض الزملاء الذين عليهم الانضمام إلينا. سنشكل مجموعات عديدة وستنقسم أحياء المدينة.

- حسن إنت رائع.

- أفكر فى الإعلانات التى ألصقتها منذ بضع سنوات التى كانت تتكلم عن الحكومة بشكل سيء.

- هذه المرة سنتكلم عن حسناتها. تغير الأمر قليلا.

اقترح خالد عمر: سوف أصبحك .. أرغب فى لصق واحد على الأقل.

قال هيكل: من الأفضل لا..

لم يقل لماذا، ولكنه فكر فى أن الضجة والضحك المنطلقين من خالد عمر تجذب الانتباه حوله.. قال التاجر متكررا

- أمتثل لأوامرك.

ابتسم هيكل له، وقال: معذرة، لأننى مضطر للانصراف.

توجه نحو كومة من الإعلانات المكسرة فوق الأرض. وأمسك واحدة. وراح

يتأملها طويلا. ثم ثناها، ودسها فى جيب سترته، وقال وقد اكتسى بالغموض:

- ربما أحتاج إليها هذا المساء، السلام عليكم.

وخرج من المخزن وسار فى الشوارع الخاوية. وهو ينتسم رائحة

البحر الحية.

(٨)

اختلطت رائحة البحر بالعطر الذى تضعه سعاد على جسدها النحيف ندى التكوين البالغ الأنوثة. كانت تتأرجح فوق الرمل، وهى تتسلى بتأمل النجوم من زاوية لا يمكن لأحد أن يراها، انها موجودة على البلاج، عند طرف منتزه الكازينو الخاوى، فى منطقة معتمة بعيدة عن الأضواء. معدة للرقص فى وسط الهواء. وصلت موسيقى الرقص اليها وقد تخلصت من إيقاعها الخافت آخذة شكلا شبحيا. وواقعا فى الركن المهجور من البلاج. تأهبت للحظة. الوجه تكسوه ملامح طفولية. جمعت حفنة من الرمل وجعلتها تنساب ببطء فوق أسفل بطنها. وهى تحس بسعادة غريزية وتشعر بهذا الثقل الذى يبرز فوقها ثانياة بثانية. وقد تاقت لبعض المداعبات التى سبق أن جربتها مرات عديدة. تأهت، كى تصل الى ذروة الشهوة ، وهى تتعلق بالمتعة التى انغمست فيها، فجأة توقفت. ألفت كمية من الرمال بين ساقها ثم راحت تلتخ رداؤها واستدارت نحو أضواء الرقص.

كان هذا هو العالم الغريب والهزلى الذى دخلت فيه بهذه النزهة الخاوية، عالم بعيد تماما ، أحست أنه موجود على مسافة آلاف الكيلومترات، نظرت الى نجم آخر، والى صالة الرقص وسط ديكور من النباتات الخضراء، ومصبات مياه وأشجار نخيل قزما، الراقصون يتحركون كأنهم عرائس يحركهم رجل مجنون. راقت الجالس الى جوار المحافظ فى مقصورة منفصلة عن بقية الحاضرين، كان المحافظ يخطب أمام أبيها ورجلين آخرين لاتعرفهما، ليس عليهما سوى أن يهزا رأسيهما علامة على الموافقة. هناك مغنية مشهورة فى البلد. متقدمة فى العمر. يقال أنها عشيقة المحافظ منذ أشهر. انها امرأة مسنة ضخمة. تبو

كمومياء فرعونية، تسمى أم خلدون، فلا شك أن وجودها مع بعض نبلاء المدينة يمنعهم من السقوط فى دائرة النسيان، أن يكون المرء عاشقا لمغنية شهيرة يعنى استعراضا لقدراته، فهم يزعمون انها تساوى الكثير لهؤلاء الأثرياء الجدد.

فى كل مرة تراها سعاد تتساعل كيف يمكن لرجل شديد الفظاظلة. شديد التعلق بالجمال أن يمارس الحب مع هذا المخلوق المجعد ذى اللحم الرخو والشديد الغرور؟ لقد كانت المطربة عشيقة لأبيها بعض الوقت. وتحفظ الفتاة لهذه الفترة ببعض الذكريات المؤلمة، فإن حقدھا على أبيها قد صاحبه احتقار غير محتمل، فلم تسمح له أن يقترب منها، ولا أن يلمسها، بدا لها وكأنه مصاب بمرض معد، وأنه يفوح برائحة العجوز. الأقرب لرائحة العفانة. وبعد أن قطع أبوها صلته بالمغنية. لم تعد تحتل رؤيته إلا نافرة.

كان أبوها من النوع الذى يمثل البرجوازية الشرهة النهمه التى تسيطر على المدينة، وكأنها عصابة متعفنة من أبناء أوى. لم يصادق إلا أناس على طرازه، ولكن كل الناس حقراء. حتى المحافظ. فإنه يمثل تميزا بوقاحتة وخيلائه، وطوال سنوات بدت سعاد ذليلة، راح أبوها يمارس شتائمہ عليها كأنه جلاذ. لا شيء يقاوم أحكامه القاطعة، وانفجارات غضبه العالى. بصفة عامة فهذه الانفجارات بدت واضحة خلال حفلات الاستقبال التى يقيمها فى فيلته الفخمة. والواسعة كأنها قصر. والتى تعج بخدم عديدين، بدأ فى استقبال ضيوفه كشخص يتحمل الإهانات ويسمح لنفسه أن ينتقم فى الوقت المناسب ثم يعود إلى ضيوفه الذين يصيبيهم الخجل من سلوكهم، يدير الاحاديث المتعلقة بالأعمال السياسية، لا يجرؤ أحد أن يعارضه، حيث أن حدة ردوده سريعة، وطريقته فى إدارة الحديث وهو يوجه السباب لمحدثيه تجعل من منزله أعلى الأمكنة فى مجتمع المدينة. فكل واحد يأتى لرؤية كيف يهان الآخرون، ومع ذلك كان يعامل ابنته بقدر من الاحترام. يكاد يقارب الخوف. كانت تخيفه قليلا بمزاجها الثورى. فهى تبو متمردة. كل ما كان يطلبه منها هو ألا تثير له أى فضيحة. كان يخاف أن يراها وقد أصبحت يوما «حاملًا»، يبنو كأنه يخشى هذا الاحتمال مثل أكثر النكبات المشؤومة. كانت سعاد تعرف أنه قلق من هذا الموضوع. تقرأ الإضطراب فى عينيه كل يوم عندما تنظر

الى بطنها . كأنه ينتظر أن تنفجر الفضيحة. لكنه ذات مرة ادرك هذا الامر فلم يود أن يعرف شيئا وكان عليه ألا يجهل كل شيء عنها .

انعكس خيال هيكل على الأضواء الراقصة، ونظرت اليه يتقدم نحو المنتزه طويلا ورفيقا . رائع مثل شبح غامض قادم من العدم، قامت بغتة، لكنها لم تجر نحوه، انتظرت بلا جدوى أن ترتدى بين ذراعيه، راحت تستند عليه وهي تقفز وتطلق تنهيدة عميقة كطفل حصل على لعبة غريبة الشكل ولا يمكن أن يؤمن بحظه، راح هيكل يتحمل مداعباتها الرقيقة، هذه العاشقة الصغيرة المهووسة. كان حساسا لهذا الافتتان ولهذا التدفق من الكلمات غير المفهومة، أشبه بتمتمات غريق عاد الى الحياة. لم تكف الفتاة عن تقييله، والاحتكاك به وهي تتقل بكل حدة على جسده، راغبة أن تجره «عها فوق الرمل. ولكن «هيكل» تحرر من عناقها وأبعدها برقة، وقال:

- هيا يا صغيرتي، ليس هذا وقته.

تأوهت: أنت قاسٍ معي.

اكتسى وجهها بتعبير مرتبك. وكأنها على وشك البكاء. ملامح فتاة صغيرة محبطة، ضحية لظلم الكبار،. بطريقة تلعب فيها نور البائسة الباحثة عن الحنان، لم تكن تعرف مطلقا في أى لحظة أحبته. إنه دائما ساكن، حتى في مشاعره الأكثر جموحا، يتعامل بنفس هذه الابتسامة الماكرة فوق شفثيه، وهذه النظرة المتكبرة، إنها ليست بعيدة عنه، ولكن على العكس، فإنها مليئة بالجرأة، والتحدى، رددت وهي تسلم صدرها لأصابعه الجامدة -

- أجل. أنت قاسٍ معي.

وراح هيكل يبتسم.

قال وهو يمسكها بذراعه ويمشى بها بطول الشاطئ:

- هيا . لنوقف هذه الملهاة.

في الحقيقة، فإنه لم يرغب في ممارسة الحب معها فوق الرمل حتى لا يتلف ملبسه، فهو في حاجة لان يظهر لتوه في صالة القمار كي يقوم بمهمته. لم يود أن يراه أحد بزى غير مهندم، لكن من ناحية أخرى فهو الآن مهووس بشيء آخر غير

الرغبة الشهوانية، إنها الخطة الجهنمية المدبرة ضد المحافظ، وريود الفعل التي سيحدثها تعليق الاعلانات فوق جدران المدينة.

توقفا قريبا من حاجز يؤدي الى أوتاد خشبية تفصل الشاطئ الخاص عن الكازينو. جلست سعاد فوق الحبل المشنود وراحت تتأرجح، وبقي هيكل واقفا ينظر اليها، ثم اتخذ مكانا الى جوار الفتاة التي راحت تطل قامته. فى هذا الركن كانت الظلمات أشد عتمة، وكان الضوء الوحيد قادما من ناحية البحر الذى تنعكس عليه أشعة النجوم. أما الموسيقى الراقصة فقد خلفت صموتا شديدا وغرقت مبانى الكازينو المضيئة فى نوع من البعاد، أحس هيكل أنه الحى الوحيد فى عالم من العدم. تملكته فجأة مشاعر غريبة من القوة، فضم سعاد اليه، وكأنه يجرب قوته فى الدفاع عن نفسه ضد الموت بشكل ميئوس منه.

فجأة دفعها، وسألها:

- هل أبوك هناك؟

- نعم إنه فى صحبة المحافظ. كيف تسير الأمور هذا المساء؟

- حسن جدا. فالاعلانات ستكون فوق جدران المدينة صباح الغد وستكون صورة وجه المحافظ ذات ملامح خاصة، ستكون أشد فتكا من النص المكتوب معها، حاولى أن تقارنى.

قالت، وقد علتها تكشيرة حزينة:

- أنت لاترانى إلا من أجل هذا. فلست لك سوى جاسوسة للمعلومات.

وأنت لست سوى مجرم فاسق .

حقا. فسعاد تخدمه من أجل التجسس على المحافظ طوال لقاءات عديدة عقدها هذا مع ابيها. فالمحافظ يعتبرها فتاة صغيرة ولايهم قط فى البوح، أثناء وجودها، بالأسرار البالغة الأهمية. لدرجة أنه قد جاء وقت أثارت أحاديث الرجلين تتأوب الفتاة ، فتعبت من سماعهما وهما يتناقشان حول كل الموضوعات الجادة التى تتعلق بأمور المدينة. ولكن منذ أن تعرفت على هيكل راحت تنتابها غريزة

فضول لكل مايتعلق بالمحافظ. فتركت نفسها تنساب فى كل مرة تروح تبليغ الشاب
ببعض التفصيلات حول مشاريع المحافظ وخططه.

قامت. ووقفت أمامه. وسألت فى توسل:

– هل تحبني؟

بدا السؤال التافه فى فم الصغيرة ذا معنى حاد، فقد عبس هيكل، ورفض
أن يتركها تنغمس فى هذا المستنقع الشجى بالحب. فكل مايشعر به نحوها ليس
له أى علاقة بهذا الشعور الجارف الذى يبدو أنها تكنه له. فهى تحس نحوه بعاطفة
تبدو كأنها من مفاجآت الروتين. ولكن كيف تفسر له كافة التناقضات؟ انها واعية
لذلك تماما، وسيكون من الحفاوة بالنسبة له أن يخدعها، لأنها امرأة ولايمكن أن
يجعلها تتجاهل طبيعتها. أجاب بابتسامة مريرة ليس بسبب كذباته ولكن بسبب
الندم الذى عليه أن يجربه لو افتقدتها ذات يوم:

– طبعاً . أحبك.

صاحت هاتفة:

– ترى أى رجل أحببته ، رجل مثلك يمكن فقط أن يجعلنى أشعر بوجودى
هذا الامر يبدو لى كأنه معجزة.

وقفزت فوق الرمل. مشدوهة وسعيدة، جذبها هيكل وجعلها تجلس قريبة
منه فوق الحبل، ثم وضع يده على عنق الفتاة، وقال:

– اسمعى. عندى مهمة لك. قفى المرة القادمة التى ستأتين فيها لمقابلتى
احضرى آلة كاتبة. سوف أمليك رسالة.

– ماذا ستعد لى. ملهاة جديدة؟

– حسن ، عندى النية أن أرسل لكل الصحف خطابا بوريا، أسألهم فيها
أن يفتحوا باب الاشتراك لإقامة تمثال للمحافظ.

ضربت سعاد بيديها عندما نطق اقتراحه ، أرادت أن تقوم، ولكن «هيكل»
أمسكها وأجبرها أن تظل هادئة. وردد:

- انتظري، ليس هذا كل شيء، هل تعرفين من سيوقع هذا الخطاب؟ سوف يحمل توقيع أبيك لبعض الأصدقاء للمحافظ..

- أنته يا فتاة، أه، كم أحبك.

حسب على رقبته وغطت وجهه بقبلات سريعة.

- يلزمنى توقيع أبيك كى يمكن أن أقلده، هل يمكن أن تدبرى لى هذا؟

- هذا أمر بالغ البساطة، سأطلب منه أن يحرر لى شيكا، فهذه ليست أول مرة، فهو يفعل ذلك دائماً عندما يعطينى النقود.

هتف هيكل: رائع، كم أنا فخور بك، سوف تطلين منه شيكا على بياض وسوف استخدمه كى أرسله فى أحد خطاباتى، سأختار الصحيفة الأكثر انتشارا فى المدينة، وسيجعل الشيك الأمر مضمونا أكثر، فالصحف الأخرى لن تثير أية فضائح، سوف ينشرون الخطاب بون مجاملة..

اهتزت سعاد فجأة فى ضحك حاد يملؤه المكر، ضحكة امرأة تعد للانتقامها.

- أه .. الغبى لو كان يعرف.

سأل هيكل : من؟

- أبى، هل تعتقد أنه سوف ينتحر؟ أه، كم أتمنى ذلك، كم أتمنى ذلك !!

أجاب هيكل: موقفك الشخصى لايهمنى، ويجب أن تفهمى ذلك.

وانخرط فى ضحك الفتاة حقد حقيقى، لأنه أدخل كل الفساد الذى يفصله عنها، فالنساء يصبن بالحب لدرجة الهذيان، وعند الكراهية يمتزج العنف بالغباء، كأن الحقد شعور مفتقد تماما، فازدراؤه العميق للبشرية يمنعه أن يعطى أى أهمية لأحد من المهرجين الذين يقومون ببطولة المسرحية، فى هذا العالم المزين بواقعهم، نظر الى وجه الفتاة الجامد الذى يبيو كأنه ينتظر منه كلمة أو مداعبة كى يبتهج، لكنه ظل صامتا، استولت عليه ذكرى وجه آخر، وجه ملئ بالصفاء، يمكن لكل حقد أن يندثر تماما أمامه، كل الرقة المتجمعة والمتدفقة فى هذا الوجه المجنون العجوز، أم عرقى، وجنونها الذى يجعله غريبا، انها تخلق فى أعلى هذا العالم

الخارجى. بقاء خفى، لا تلتطخه كراهية. هو الذى ليس بيده شىء ، إنه يغير من عرفى لأن لديه هذه الأم المجنونة. هذا الكيان الهارب فى حضيض الأحياء الشعبية، ناظر المدرسة الذى يملك الشىء الوحيد الذى يمكن إثارتة ومس شغافه. إنه شىء ثمين للغاية. يضطره أن يسمح لعرفى بمشاركة التغيير، لديه اليقين أن صديقه لن يقدر على فهم معنى هذا الإجلال الفريد. لقد كان يعرف أن عرفى يؤنبه فى داخله. لأنه يحبس نفسه دائماً مع المجنونة العجوز فى غرفتها، انه يشك بأن لديه أفكارا موسوسة تجاه أمه. كيف يمكنه أن يشك أن هذه هى اللحظات الوحيدة التى يمكن لهيكل أن يجرب شعوراً مؤكداً. أصبح من المعجز الشعور بالامتنان. والرقه، إنه قادر على التضحية بلا حدود أمام هذه العجوز المجنونة. هذا الحطام الإنسانى. أحس بالصمم فى داخله. دموع الرقة والحب، لكنه يفضل أن يثير شكوك عرفى المرعبة. بدلا من أن يعبر له عن الرقة المتناهية لهذه اللحظات التى يتأمل فيها وجه أمه الحنون. هذا الموقف المبهم يثير شجنه لدرجة تجعله يهرب من زيارة العجوز المجنونة. يكفيه الآن أن يتذكر ملامحها، ونظراتها الطفولية الشهيرة، كى يصل الى أتين النفس الذى يسبب سعادته.

أحست سعاد بغريزتها أن فى صمت هيكل نذيراً سيئاً. اهتزت على الحبل، وتململت، وتنهدت بقلق وهى تراه عائداً إليها. تأتى الموسيقى من بعيد، خفيفة، وصافية فى الليل. انتهت بأن قالت:

– هيا نذهب لنرقص، فأبى مشغول جداً مع المحافظ. ولن يلاحظ شيئاً. فأننا لم أرقص معك منذ فترة طويلة.

قال هيكل - لا، مستحيل، الحقى بأبيك. فسوف أتوجه الى صالة اللعب.

– هل سأقابلك فيما بعد؟

– سأجىء لحظة الرقص. لكننى لن أبقى طويلاً. فلدئى ما أعمله هذا

- النساء.

قالت وهى تمط شفيتها وتطلق تكشيرة مأساوية: أعرف ماسوف تفعل.

قال هيكل ضاحكا: لاتكونى غيورة.

- لست غبورة الآن، ولكن أحذرك أننى سأصبح هكذا عندما أكبر.
قال هيكل مداعبا. لكنك الآن كبيرة فأنت فى السابعة عشرة تقريبا.

- أيها القذر

كادت أن تجهش. ولكن هيكل تأهب للذهاب، وفتت سعاد فجأة وتعلقت به. وهى تحاول أن تخريشه، وأن تقبله فى نفس الوقت، ويكثير من البراعة، ويكثير من الوعود الماكرة، تمكن من التخلص من الفتاة. ثم عبر المنتزه وعرج نحو اليسار فى اتجاه المبنى المخصص لصالة الألعاب.

كان مبنى من المرمر، مزين بالموزاييك، أشبه فى هندسته المعمارية الثرية بمقبرة هندية، دخل هيكل الصالة بخطوات سريعة ومرحة، كمقامر يود ألا يتأخر عن قدره، التزم بصمت مهيب، ملء بالمعاناة. ألقى مسئول اللعب البلى فى طبق الروليت. كان دوران البلى يبدو أشبه بابتسامة خبيثة، سادت الصالة تماما، فى هذا الجو الحار، كانت الحرارة ملتبهة فلا أى نسمة تهب من الفتحات الواسعة التى تطل على البحر. دقق هيكل فى مجموعات المقامرين المتلاصقين حول المائدة الطويلة، ولكن أحداً لم يستدر فى مكانه، كانوا منهمكين تماما فى اللعب لدرجة أنه لايمكن لزلزال أن ينزعهم من التأمل فى الروليت، ظل دوران البلى مسموعا حتى عندما بلغ أطراف الصالة، الى جوار البار الضخم، حيث يوجد ممر يؤدي الى دورات المياه، كان المكان خاويا. مد هيكل أذنه نحو الممر كى يتأكد أن أحدا لايتبعه، لم يسمع أى ضجة، ولكن فقط حركة صماء تأتى من بعيد، بلا شك فالبلى بدأت تستقر، تحرك اللاعبون من معاناتهم. حانت اللحظة التى بدت له ملائمة كى يبدأ العمل. ويسرعة أخرج الإعلان من جيبه وبواسطة أنبوية لصق راح يلصقها على الحائط، بالضبط أعلى صف المبولات. بدا وجه المحافظ كأنه هو يرقب فتحات سراويل زبائن الكازينو. انه أمر يثير السخرية حقا. تراجع هيكل وهو معجب بعمله، ثم غمرته فرحة مأكرة، هنا سمع خطوات فى الممر. قد يتعقد الأمر. اذا رآه شخص الآن، سوف يبدو كشخص مشبوه، أو يتصرف كأنه لايعرف، لن يهرب من نقاش يخاطر أن يتلافاه، أمسك مفتاح الكهرباء بيده. حركه، وأغرق دورة المياه فى ظلام، ثم انسل من الناحية الخلفية وهو يدفع الباب، اقتربت الخطوات الثقيلة

الخرقاء، لدخل رجل المرحاض. وفي الضوء القادم من المر، رأى هيكل رجلا ضخما يكاد يترنح، يتجه يمينه نحو المبولة، إنه رجل متقدم فى السن، شديد البدانة، بدا للوهلة الأولى وكان هيكل لايعرفه، أطلق تنهيدة وبدا ثملا. تماسك هيكل. واستعاد أنفاسه، فهو لايجرؤ أن يتحرك، انتظر أن ينشغل الرجل فى التبول لكى يأخذ فرصته فى الهروب، فالرجل الآن يدير له ظهره. وقد باعد بين ساقيه، انعكس ظلّه الثقيل على الخزف الأبيض، زفر وهو يحاول فتح أزرار سرواله، كان ثملا بما فيه الكفاية لدرجة أنه لم يلحظ انطفاء النور، وراح هيكل يهنيء نفسه عندما أخذ الرجل فجأة يطلق سبابا بذيئاً ضد إدارة الكازينو. رغم سكرته، مال بكل خفة نحو مفتاح النور، وبعد برهة عاد الضوء. ولكن قبل أن يستطيع هيكل إصدار أى حركة، رأى الرجل وجه المحافظ على الحائط، انتابه زعر للحظة. ثم أطلق صرخة ضاحكة ساخرة، خنقت حنجرتة وانهار وهو يبهز يديه فوق رأسه وكأنه سيطلب النجدة من كل الدنيا، انتفض هيكل، وهو يفاجئ بما حدث، اقترب ببطء من الرجل الممدد فوق الأرض وقد انفتح السروال، بدت كل هذه الكتلة الضخمة المتمددة كأنها الجثة. لقد مات. جحظت عيناه وهما تتأملان وجه المحافظ فى إلحاح باد، وبدا لهيكل أن للرجلين مظهراً ساخراً بطريقة غريبة. ترك المكان وقد فهم تماما سبب هذه الخصومة اللدودة والغامضة بين الرجل والمحافظ.

كان الصوت الذي ملا صالة القمار قد جعل «هيكل» يصدق أن نبأ وفاة المجهول ذاع بين اللاعبين. ولكنه سرعان ما أدرك خطأه، فقد كسب واحدا من اللاعبين مبلغا كبيرا. وكان هذا حدثا سعيدا بالمصادفة أثار هياجا عاما. انتهب هيكل هذا الهياج، لم ينتبه أحد إليه وهو يعبر الصالة ويخرج الى المنتزه .. وعندما وصل الى صالة الرقص، اتخذ مائدة خاوية قريبة من نخلة صغيرة وجلس ينتظر الأحداث.

بلا شك، فالرجل أصابته نوبة قلبية مفاجئة عندما شاهد صورة المحافظ. لم يكن هذا الموت مدرجا فى البرنامج. لكن «هيكل» راح يعزى نفسه، فحسب رأيه فإن هذا الحادث نتاج لقدرية تعرف أحيانا كيف تبنو مثيرة للسخف. وهكذا، فإن أول شخص رأى الاعلان سرعان ما سقط ميتا، «أمل لايتبعه الآخرون فى الدرب.

فسوف يسبب هذا مجزرة». هكذا فكر هيكل، فليس هذا هو مايرغبه، ظل منتبها لأقل بادرة، راح يتأمل بكل حدة تعاطف هذا الجمهور البرجوازي المغرور المختال بسماته غير المحتملة. حقا الكازينو هو المكان الأمثل لهم، فإليه يأتى عليه القوم وأثرياء المدينة. هنا حيث يعتمل الغباء الغريب لهذا الحشد، مما يجعله يؤمن بخيالهم المريض. لا يمكن أن يكون هذا حقيقة. كل هؤلاء الناس أصابتهم بشاعة غير محتملة، نوع من القبح اللامتناهى، يسمح ببصيص من الضوء لأفكار غير معقولة. إنهم لايميلون الى التسلية، جامنون فى أنوارهم، يعيشون نفس الملهاة المريرة التى تور فى مجهول. فالبشرية بشعة، وقد اقتنع هيكل بذلك منذ أمد طويل وهو عند هذا الحد يعتبرها شكلا من أشكال الاستفزان.

أدار عينيه نحو مقصورة المحافظ. وكأنه يدير رأسه نحو شيء مبهج. رأى سعاد فى مقصورة أبيها والمحافظ، أما الآخرون الذين كانوا معهم فقد اختفوا حتى عشيقه المحافظ. المطربة التى لعلها توجهت الى عملها فى ملهى ليلى، كانت الفتاة تجلس فوق مسند المقعد الذى يشغله المحافظ وتبدو كأنها تتوسل إليه أن يمنحها رضاه. إنها تستخدم كل سحر أنوثتها المبكرة، فانحنى نحوه. وراحت تدلك له ظهره بيد رقيقة كأنها اعتادت على ذلك كى تمنحه فرصة، بدا المحافظ مسلوب الارادة بشكل مرعب. يدافع عن نفسه كشيطان ضد محاولات إغراء الصبية، لم يفهم هيكل أن سعده تحاول أن تنال منه. أثاره هذا. ثم تابعت عملها للحظة بدافع التسلية.

كان المحافظ ينتمى الى هذه الطبقة من الشخصيات العامة الذين ليس لديهم أى شىء يفعلونه، فخيالهم محفوف بالعمل الذى تنجزه الطبيعة. إنه قصير القامة، مكروش، الساقان ملتويان. الأنف أفطس، العينان كبيرتان مستديرتان جاحظتان، تبدوان كأنهما تنويان الخروج من محجريهما. وعندما ينظر إلى محدثه. فإن هذا الأخير يحس أنه كبر الاف المرات ، لان هذه الاشياء المتوحشة البارزة، الجاثمة فوقه تبدو كأنها ميكروبات معدية. فى الحقيقة فإن المحافظ يحاول

أن يبدو يقظا فى مدينة يرغب كل سكانها فى النوم. لا يمكن أن نقول أنه يرى كل ما يمر من حوله، وأنه يتصرف كنسر، كان عليه أن يكسو وجهه بالنظرة المعروفة عن «ملك الجو»، إنه أحد أصدقاء الوزير فى السلاح، الذى عينه فى وظيفة المحافظ. كانت تلك فرصة كى ينتقم لكل سنوات الضمول. فراح يحكم المدينة وكأنها خزانة مجندين. ففى كل يوم يتخيل ممنوعات جديدة تمس الشعب الفقير. يقال أنه جرب كافة المخاطر.. الشئ الوحيد الذى لم يجرؤ أن يلمسه هو تحريم لعبة الطاولة فى المقاهى. يقال إنه يفكر فى ذلك حثيثا، ولكن حاشيته حاولت أن تثنيه عن عزمه، وأكدت له أن منع لعب الطاولة سيثير حالة من ربود الأفعال ويستوجب موافقة من الحكومة بالعاصمة.

الآن، وقفت سعاد قريبة من مقعد المحافظ وسحبته من كمه، أشارت له الى حلقة الرقص. سرعان ما أدرك هيكل سبب توسلاتها، فالفتاة توسلت للمحافظ أن يرقص معها. ولكن المحافظ رفض تماما، حاول أن يتخلص من ذراعها. لمع فى وجهه القزم رعب ساخر، أدرك هيكل أن سعاد تفعل كل ما بوسعها كى تقدم له عرضا رائعا. وفى لحظة نظرت تجاهه، وابتسامتها اللئيمة على شفقتها. كأنها تحاول أن تلتفت نظره أنها تهب نفسها لفتنتها. كان على هيكل أن يسمح لها بمراقبة المحافظ. أعطت ابتسامته للفتاة بادرة تشجيع. ثم راح ينظر الى الجمهور.

خلال بضع دقائق، كان الجو قد تغير تماما، لوئظ أن هناك حركة غير ملموسة من العصبية بين الأشخاص. كان النداء وموظفو الفندق يروحون ويجيئون بحركات مليئة بالتوتر قام العديد من الزبائن، وبسرعة اتجهوا نحو صالة اللعب. أحس هيكل من حوله بيوادر توتر خفية. وكأن هناك ريح غضب غامضة. راح الأشخاص الذين كانوا يتكلمون بصوت عالٍ يتهامسون بينما انخرس البعض الآخر تماما، استمر الاوركسترا فى عزفه الذى يصم الآذان، وفجأة تراجع إيقاع الموسيقيين الذين يفترض أنهم قد أدركوا الكارثة القادمة من البحر، أحس هيكل أن الأمر تم إكتشافه جثة المجهول الميت فى نورة المياه. انتابه وخز خفيف فى قلبه لما سوف يحدث.

- سلام عليك يا هيكل.

كان للشباب الذي يقف أمامه جمال الغزال البرى، وجهه الرقيق يقف فوق رقبة طويلة كشفت استدارة وملاحة ملامحه الدقيقة. كانت له عينان سوداوان واسعتان، ورموش مخملية تترك حولها تأثيرا رائعا، وجذابا للنساء المتقدمات فى السن وصاحبات الثروات، اسمه رياض، ومن طموحاته أن يحظى بصداقة هيكل. فهو معجب به بلا حدود، حاول أن يثير انتباهه عندما وجد نفسه مع مخاطبه فى المر. لم يود هيكل صحبته قط، وراح يباعد المسافة بينهما ولكن المصلحة التى تربط بين سكان المدينة، تجعله مضطرا الى وساطة رياض، إنه يحمل فى قلبه كل أنواع الخنازير والنوارد السخيفة التى تنطلق حول الحكومة العليا، كان رياض يعرض بلا حياء علاقاته معتقدا أن هيكل ينهر بالتسهيلات التى تتم فى الأوساط الأكثر رقيا، لم تنتابه قط فكرة أن هيكل يتقياً من هؤلاء الرعاع ولا يهتم سوى بإرضاء مزاجه السادى، قال وهو يجلس حول مائدة هيكل:

- هل عرفت الخبر؟

- لا . ولكن أمل أن تخبرنى.

أخذ رياض وقتا، تضاربت رموشه، واستدارت رقبتة وكأنه يحب أن يفعل ذلك من أجل إغراء محدثه، ادرك أن عليه أن يسرع، ففى ظل هذه الظروف هناك مخاطرة، علم هيكل بوقائع الخبر المشئوم بدقة بدقيقة، وهكذا حصل على المعلومات بلا مقابل، كان من الصعب عليه أن يتكتم الأمر، مما مكنه من تحول خفيف فى اللهجة:

- حسنا، إذن فالمحافظ سيكون مسرورا.

سأل هيكل: لماذا؟ ألم ينل بعد ما يستحقه؟

علق رياض أخيرا. لقد مات عبوه اللود أنت تعرفه بالتاكيد، انه عبد الحليم مكرم، رجل الصناعة الثرى، لقد وقع بكل ثقله فى نورة مياه صالة القمار. قال هيكل: لقد نال ما يستحق، يا له من غبى، كيف يمكن أن يكون عدوا

المحافظ وهو الرجل الثرى.

- ألسنت فى الدنيا؟ فالمحافظ خطف منه عشيقته منذ بضعة أشهر. إنها المغنية العجوز أم خلدون، فالمحافظ مرتبط بها فى هذه الايام.
- ولكن الناس كلها يزعمون أن عبد الحليم فاقد الرجولة.
- لا يهم. كان لايدرى أن الناس تعرف ذلك، بل على العكس كان واثقا أن المحافظ قد سلب المغنية منه، إنها امرأة غير جميلة. ومع هذا كان ينتقده بشدة . هؤلاء العواجيز مزعجون فيما يتعلق برجواتهم.

وبينما هو يتحدث مع الشاب، لم يكف هيكل عن النظر الى مقصورة المحافظ. لقد اقتربت اللحظة التى لم يعد فيها موت عبد الحليم سرا لأحد وبهمه أن يعرف كيف سيتصرف المحافظ عندما يعرف الخبر. كانت سعاد قد تخلت عن مشروعها الرائع مع المحافظ. جلست هادئة علي مقربة من أبيها. وقد اكتست بتكشيرة لاحظها الرجلان اللذان انهمكا فى نقاش فظ. بدا وجه المحافظ الحزين مكتسبا بتوعل عميق. بسبب كرامته المجروحة. راح محدثه يتتبعه. يجب أن يسقيه من روح السخرية. راح يبرم شاربه ويرفع يده وكأنه يتحكم فيمن حوله بهذا الفيضان من الفصاحة المهينة. رأى هيكل سعاد كأنها تنبج. وقد بدا عليها الملل جهارا. وفى مقصورتها المنفصلة عن الجمهور. بنوا وحدهما كإنهما لم يصابا بأى قلق. قال هيكل:

- الرجولة. لم يشك عبد الحليم المسكين قط أنه فقد رجولته. بل أنه افسد طعمه الماسخ مع امرأة عجوز. فعندما يكون المرء عاشقا لامرأة عجوز مشهورة .. ذلك أفضل من أن ينام مع فتاة مغمورة لايتكلم عنها أحد. ولكن ماذا يرضى رغبته كرجل؟، اليس ذلك بسبب ثرائه؟. لقد خشى أن يتهموه بالبخل. فى الحقيقة لم يكن يبحث سوى عن إثارة دهشة من حوله.

قال رياض: لقد فسرت حالته جيدا. ولكن ليس هذا كل شيء. هل تدري أنهم اكتشفوا إعلانا معلقا على المبوللة عليه وجه المحافظ مصحوبا بكلام حماسى عن انجازاته. ألا تجد أن هذه مصادفة غريبة؟

- ماذا تعنى؟ هل وجه المحافظ هو المسئول عن الأزمة القلبية؟

- باطبع، فعبد الحليم كان مخمورا، وكان رأس المحافظ يتأمله وهو يتبول
مما ذكره بشيء آثار فيه صدمة مرعبة.

علق هيكل: إنه لأمر مضحك.

- ولكنها جريمة، يمكن أن نُجزم أن المحافظ قتله، بشكل غير مباشر مهما
يكن، فلا يمنع أن الامر قد حدث على هذه الشاكلة. مارأيك فى فكرتى؟

ومن جديد، لاعب رياض رموشه كشاب مبتدئ لا يعرف سوى هذه الخدعة
كى يمارس عمله، أراد أن يبين لهيكل أنه يحمل الأفكار الانتقادية، وأنه ينفذ الأمر
رغما عنه، ولكن خطته الساذجة هوت فوق الارض. ولم تجد لدى صاحبه أى
حماس. قال بشكل سخييف:

- ألن تقول شيئا، تصورت أن هذه الحكاية تعجيك.

قال هيكل حتى لا يخيب أمل الشاب: انها تعجبني كثيرا.

ابتسم رياض، وأحس أن حركة الرموش هكذا بدت غير مجدية. فأخذ
ينتقد المحافظ بشدة، وراح هيكل يباركه، قال:

- لقد استبد بالمحافظ خزى ملحوظ. إنه يعاملنا كأغبياء، فما قرأته فى
هذا الإعلان شديد الغرابة، إنه مثير للدهشة، فهذا الرجل راح بعيدا فيما يتعلق
بالسلطة، ألا تعتقد ذلك؟

رد هيكل: ياعزيزى رياض. ما زلت شابا كى تعرف قيمة هذا الرجل. إنه
نموذج استثنائى. وهو يعرف ماذا يفعل، وأنا ازداد اعجابا فى كل لحظة به، دعنى
أخبرك أن سذاجتك تؤلبنى.

عبرت ملامح رياض الرقيقة الانثوية عن إخفاق لا حدود له. كأنهم أعلنوا
نبأ وفاته، بل أكثر من هذا: انهيار الاخلاق التى كان يعتقد أن هيكل يشاركه فيها،
بحث عن شيء بسيط يتناسب مع أوامم شبابه، ولكن فكرته بدت فجأة مزعجة
عندما سمع الزئير البعيد لصوت عربة اسعاف تشق طريقها نحو الكازينو، راح
الصوت يعلو كلما اقتربت العربة، تخترق الهواء بأنيها المزعج المؤلم، كان هذا

الزئير يعلن عن كوارث الناس حولهما، راح رياض يتأمل هيكل وقد لف رقبته ويذا راضيا، وكان صوت نفير العربة يبرهن على صحة رأيه. أدار هيكل رأسه نحو مقصورة المحافظ، الذي بدا وقد تجمد من المنظر الذي أمامه. كان المحافظ واقفا أمام مقعده، فأدار قامته وأخذ يحرك عينيه حوله، وكأنه يحاول أن يفهم من أين يجيء الخطر. مما أعطى الانطباع أنه يود أن يقبض على متمرده. فجأة سكت النفير، وانفجرت سعاد في الضحك وهي تنظر الى هيكل. هذا الذي يستهوى نظر الفتاة، فبدت ابتسامته أكثر سخرية من أى وقت مضى.

(٩)

تحت هذه السماء، راح ينظر من أعلى سطح منزله الشمس الى البحر، نوى كريم أن يقضى يوما مليئا بالأحداث السخيفة، وأن يعطى لهذه الاحداث فرصة الحدوث . عليه أن يمشى بخطى متساوية ، وأن يتوقف أحيانا فى ظل الأشجار الممتدة بطول الطريق الترابى . يعين راصدة ، وأن تتجه مشاعره نحو شئ خفى، وأن يهتم بأقل تفاصيل المنظر الذى حوله. كل هؤلاء الناس الذين سيقابلونه، ويسدون عليه الطريق ، ويفرقونه بكلمات مغالية عن صعوبة الحياة . ولهذا كان كريم أكثر الناس سعادة . لاشئ يجعله أكثر متعة من التسكع فى الشوارع حسب ظروفه الطارئة والمفاجئة . فكل ما يراه ويسمعه يسبب له سعادة يعجز عن وصفها ويستثير بهجته . حوانيت غارقة فى الظل ، وبعض الأقبية المظلمة . قد يقترب من العتبات على أمل أن يلتقط بعض العبارات المتلاطمة . كل ما يبحر عنه وراء هذا ، هو أن بعض الأمور لا ملابسات لها ، إنه يحب سماع الأفكار المتبادلة بين الادعياء . هناك بشكل خاص جملة يتوقع أن يسمعها كل مرة يدور فيها النقاش بين رجلين . مهما كان مستواهما الاجتماعى - ففى أغلب الأحيان يتعلق بالأوباش المعدمين. هناك دائما من يقول للأخر كمن أهينت كرامته : «هل تعرف من أنا؟» هذه الجملة تثير إعجاب كريم ، لقد تفان منذ وقت طويل فى اكتشاف مكونات إثارة البشر. يبيو هذا شيئا غير قابل للتفكير. ففى هذه المدينة يتصرف الحفاة كأشخاص مهمين . حتى الحكومة اتخذت من الكورنيش البائس المطل على البحر طريقا حيويا، كأنها تؤكد بذلك ان جنون الكبار يأتى من أعلى . إذن ، فأى مغرور أوباشى يمكن الإمساك به ، وهو يسير على نهج حكومته.

ليس هذا هو هدف نزهة كريم الذى وجد نفسه محشورا - فى ساعة مبكرة - فى هذا الشارع الذى ضربته الشمس . يقابله جمهور متحدر . يمشى الهونيا فى الحر والتراب . فبالامس جاءه طلب استدعاء من قسم الشرطة يأمره أن يحضر للاستجواب فى أمر يهم الحكومة . هذا الطلب لم يسبب له قلقا . فقد كان ينتظره، إنه استكمال لمهمة الشرطى الذى نهبه الى ذلك . بسبب هذا الطريق الحيوى . لذا سلك طريقه قبل الموعد المحدد . كى يستغل الوقت . ويعد نفسه للاستجواب القائم على إقامته فى مسكنه الجديد . وبينما هو يتسكع تساهل إذا كان الشرطى العجوز المصاب بالرئو والذى تمكن من صعود الأنوار الستة فى الأسبوع الماضى . قد التزم بوعده ، وكتب تقريرا مفصلا . أم هل كان جاحدا بعد أن قبل طائرته الورقية ؟ راح كريم يسترجع المشهد ، وتردد العجوز المؤلم الذى اعتقد أنه يغويه . لقد نجحت الفكرة فى افساد شرطى مما جعله يضحك ، ولكن الضحكة كانت قصيرة . فهو لم يحس بالسكينة تماما ، فعليه أن يرد أيضا على أسئلة جريئة . وأن يبكى وينتحب كى ينسى ماضيه كئوبى . وهذا يتطلب بعض الاستعداد من ممثل يقوم بدوره جيدا . اتخذ شكل رجل خجول . وأعطى لوجهه تعبير رجل أصيب بكارثة ، واقع تحت عبء مسئولياته . للأسف فليست هناك أى مرآة . عليه أن يكرر الأداء بلا نية فى تصحيح أخطاء التمثيل ، بالتاكيد، لكنه يمكن أن يبدو كئيبا . إنه لامر يبدو صعباً ومنفراً . حاول ان يتخذ شكله العادى ، ابتسم ابتسامة عريضة وهو يمسح تعبير المعاناة من فوق وجهه . بطريقة أو بأخرى . كان واثقا أنه سوف ينفرد كل رجال الشرطة الذين يريدون أن يبعده عن مسكنه المريح وأن يلقوا به فى كوخ فى حضيض المدينة . تطلع الى السطح الواسع والى الفضاء أمامه ، إنه من العناصر الأساسية لصناعة الطائرات الورقية.

لقد أصبح الأمر بالنسبة له مسألة سعادة . خاصة أن الطريق أصبح حيويا . إنها قصة جميلة تدفع المرء ان يسبر غور الغباء . كان الأمر الأساسى هو أن يجد الشكل المناسب، وأن يبدو شخصا متكابرا ومراوفا ومنحلا، وألا يعتمد نطق أى كلمة ذكية . فهذا هو الخطر الاكبر . فالذكاء مبهر كالبصقة فى الوجه .

ولكن كيف يخفى ضياء عينيه اللامعتين . هل يستخدم نظارة سوداء؟ ويزعم أن رمداً أصابهما؟ يالها من فكرة رائعة . لماذا لم يفكر فيها من قبل؟ فالوقت متأخر الآن . وعلى كل ، فهو لا يملك نقودا كي يشتري نظارة .

بين وقت وآخر ، كانت عيناه تقع على أحد الإعلانات التي علقها البارحة فى الطريق . تابع مسيرته مع وجه المحافظ ، بدت له فكرة ثرية ، وهو يتابع مسيرته نحو مقر الحكومة إنه نادم لأنه صنع هذا الديكور البشع الذى يقفز إلى عينيه فى كل لحظة . كأنه إعلان من الجحيم . كل هذه الصور تعكس مظهر التقوى التى تفتقد المشاعر الروحية تماما . فبعضها يحمل نوايا تخريب بشعة ، شاهد عيني المحافظ وقد نزعتا من مكانها ، أما البعض الآخر فقد وضع له لحية . هذا الخداع البليغ لم يفسده المحافظ فى شئ ، فهو يحس يوما بعرفان الجميل . فمنذ ظهور هذه الإعلانات أصبح أكثر شهرة من نجوم السينما ، وهلل الاطفال لصورته . وتعاملوا معه كفيلم مغامرات . هذا الأسلوب الغريب لا يصدر إلا عن أطفال أثقياء . لم يهتم السلطات سوى ان الإعلانات أثارت تجمعات الناس المؤهلة للمزاح والالعاب الشيطانية بأساليب عديدة . وعلى الشرطة أن تتدخل وتوقف بعض الأشخاص الذين يضحكون أكثر من الآخرين ، بتهمة ممارسة الدهشة . وهذا وحده يكفى . كان هناك دوما شخصان أو ثلاثة أشخاص من مدخنى الحشيش فى الغرزة ، وقد فتحت عليهما صورة وجه المحافظ المثيرة للسخرية والرغبة فى القهقهة . لم يستطع هؤلاء أن يمنعوا أنفسهم من الانفجار فى القهقهة ، حتى ولو وقعوا فى قبضة الشرطة الغاضبة . راح العديد من الناس يكيل المديح لمن لا يستحقه . لكنهم ظلوا محتفظين بشرفهم ، مثل هذه الامور اللئيمة الصاخبة التى تتولد فى اللحظات غير المناسبة ، راحت تصنع الزحام فى الطريق العام . ووضعت السلطات أمام اختبار قاسٍ ، ضجر جنود المحافظ الذين لم يفهموا شيئا عن هذه البادرة غير الرسمية ، التى لا يقوم بها سوى الثوار .

فجأة توقف كريم ، وقد رأى على مسافة أمتار أمامه حلاقا يفترش أدواته فى ظل شجرة فوق الرصيف . دفعه هذا المنظر ان يقص شعره . وتراعت له فجأة

ضرورة أن يقدم نفسه لممثل الحكومة فى مظهر الشخص الذى يعتنى بنفسه ويكن مشاعر الاحترام تجاه السلطات . فالشعر شئ أساسى ، والشعر الطويل قد يعطى روحا ومسلكا ثوريا . فأقرانه أكثر شعراً فى أغلب الاوقات . ولا يأخذون الأمر على محمل جاد. فى أى خطأ جسيم سيرتكبه ، وكيف يعرف أنهم لن يرغموه على دفع غرامة لو رأوه «الخلفة» التى تليق بشخص مثقف ضال . قصة شعر رائعة ، تقريبا على الزيرو وكأنه سجين ، سوف تترك أثرها وستعطيهم برهانا أكيدا عن احترامه للقانون . رجل واحد فقط قادر ان ينفذ هذه الأعجوبة . انه هذا الحلاق الجاهل مع هذه الجزة المدمرة .

تقدم كريم مبتهجا ، مشدوها بقراره، كان الحلاق يقص شعر رجل قصير نحيف ، ذى وجه كئيب ، يرتدى رداءً داكنا مرتقأ ، يتمتع بفقر نبيل ، يجلس فوق مقعد خشبى وقد أسند ظهره الى جذع الشجرة . اغلق عينيه ، كأنه أحد الشهداء يضع ملفا فوق ركبتيه ، افترش فوقه طربوشه البالى .دليلا على أنه موظف ، وكأنه يثير خوف أوياش المكان .

أما الحلاق ، فقد أحنى رقبتة أمام زبونه ، وهو يتحرك كأنه يقوم بتحنيط جثة . راح يمرر موسى ذا نصل شديد الخشونة فوق وجنتيه يصدر صوتا أشبه بالمنشار الآلى . لم يزعجهما وصول كريم بالمرّة ، فلم يرد أحد منهما على تحيته، اندهش لهذا الاستقبال ، ولكنه واثق فى نتائج الأحداث . جلس الشاب فوق المقعد الآخر الخاوى المحجوز للزبائن وانتظر . وفى الحال أحس بأن هناك أثرا لتغيير مفاجئ فى الجو . انتابته غبطة غريبة ، راح يهتز شيئا فشيئا وقد أحس بأنه فى حاجة الى النوم: طراوة الظل، ورائحة صابون الذقن ، المزوج بروائح مختلطة بعبثر البنفسج . أحس بأنه فى جوريفى . فى هذا الحر اللاذع . بدا محل الحلاق المقام فى وسط الهواء ، أشبه بحديقة اللذات . مكان من الأحلام الممتعة . أراد كريم أن يبقى هناك أطول وقت ممكن نون أن يتحرك ، وأن ينظر فيما يشبه الوعى الى العابرين الذين يمرون حوله ، وأن يتصرف مثل الملاعين المنذرين للنار الأبدية كان يتلذذ بهذا الاستجمام . عندما سُحِبَ بشكل بشع من خدره بعربة يجرها

حمار توقفت لتوها عن القرقعة بجوار الرصيف . رأى كريم الحوذى ينزل أرضا ، ويخلص حماره ويمسكه من رقبتة ، ثم يصحبه الى ظل الشجرة كى يكون قريبا من ناظريه .

قال الحوذى بصوت صادر من أعماقه : يا أسطى عبده . هل انتهيت ؟ إنه فى حاجة لأن يجز شعره .. ابن العاهرة هذا .

رد الحلاق وهو يلقى نظرة على الزيون الجديد ذى الأقدام الأربعة . حالا . دقيقة واحدة وسأهتم به .

الحمار ، إنها مملكة ، لعله يفهم أنهم يتكلمون عنه ، لذا راح ينهق بطريقة مزعجة فى أذنى كريم . وخلال لحظة ، لم يستطع الشاب أن يتماسك ، فراح يوجه كلامه الى الحوذى :

– هل يُنهق هكذا دائما ، أم أن هذا عيد ميلاده ؟

قال الحوذى : الجرحار ، إنه حمار عجوز ، ولكنه طيب .

بدا الحوذى شديد الغلظة ، ولم يتحمل السخرية . فقد جرحه كريم . انتظر ردا لانقا . وأمام الفقر الفكرى لمخاطبه . بدا عصيبا وقال :

– لا أشك فى ذلك . ولكن حاول أن تسكته ، إنه غير محتمل .

راح الحوذى يربت على ظهر الحمار ، ويخاطبه بكلمات عذبة ، كأنه يغازل عشيقته ، ثم ألقمه ببعض حزم البرسيم . فهدأ الحمار قليلا قليلا .

وراح يلوك فى الفضاء كل هذه الوعود الماكرة . وفى ذلك الوقت كان الحلاق قد انتهى من زبونه الذى وضع طربوشه على رأسه وطوى ملفه أسفل ذراعه . وعندما أحس بأن مشاحنة سوف تتولد قرر ألا ينحشر فى شجار أحد أطرافه حمار .

أمسك الأسطى عبده مجزه وأقترب من الحمار وبنظرة عصبية لفتان جاءه الإلهام أخيرا . ولكن قبل أن يبدأ مهمته أوقفه كريم بحركة ، وقام من فوق مقعده :

– ماذا يعنى هذا يا رجل ؟ أنا هنا قبله . وأنا مستعجل .

قال الحلاق : معذرة يا أفندم . ولكن هذه عادة قديمة . ولا يمكن أن أجعله ينتظر .

- سيينظر وأنا أكرر عليك أننى متعجل .

قال الحوذى : هذا الحمار متعجل أكثر منك .

علق كريم . لماذا ؟ هل سيذهب إلى حفل زفاف ؟

رد الحوذى بلهجة مكابرة : ليس لدينا وقت للذهاب لحفلات زفاف، نحن نشتغل .

راح الحمار ينهق ، وكأئنه يحس بالفخر أنه السبب فى كل هذا . مد الحوذى المجز بطول ظهره وهو يغنى له بصوت رقيق مسموع . انتاب كريم سُخْط قبدأ يثور لكل هذا الاهتمام الذى يلاقيه الحمار . ترى ماذا يكون هذا الحيوان ؟ حمار حكومى ، ربما وزير ، جاء خلصة وراح يتصرف كالموظفين ؟ لم يدهشه هذا فى شئ . فقد شاهد المعاملة الاستثنائية التى يلقاها من الحلاق ، بدا الموقف غير متكافئ تماماً بالنسبة لكريم . فغرق فى متاهة . عليه ان يتصرف بحذق كى يخرج نون أية خسائر . فهو لا يمكنه ان يغادر المكان ، أحس أن أمامه ساحة من الجدل المثمر ، لم يكن عليه سوى أن يثريه . فمثل هذه الحالة من الشرور لاتمثل له الشئ الكثير .

رفع كفه ، وبدأ ينظر فى ساعة يده ، واستكمل موجهها كلامه الى الحلاق :

- ألم تأخذ فى حسابك يا رجل اننى على موعد مع المحافظ . فتجعل هذا

الحمار يسبقنى ؟

سأل الحوذى وقد بدت عليه الدهشة لعلمه بوجود شخص ما : أى

محافظ؟

انفجر كريم : أى محافظ ؟ محافظ هذه المدينة !

ردد الحوذى : هل فى هذه المدينة محافظ . لاتقل هذا ايها الشاب . حتى
استطيع أن أصدقك .

صاح كريم : هذا سر تخلفنا . فأمثالك من الناس يصنعون منا شعبا
متخلفا .

بلغ الجنون حده، أحس كريم أنه غير قادر على إيقاف الآلة التى فتحت
النار . لقد دفعه شيطان رجيم أن يورطه أكثر محاولا أن يدفعه الى ذلك الجدل
العبثى . تردد أن يترك هذا الجو اللطيف الظليل كى يرمى بنفسه فى الشارع
الحار المرعب ، ولضايقات استجواب الشرطة . قال غير واثق فيما سيفعل :
- سأذهب .

ولكنه بقى ينتظر المجهول ، كأن هذا الموقف سوف يسلط ضوءاً ساطعاً
سيكشف له كل وجه البشرية الغامض . قال الحلاق ، وهو يمسك مجزه ويرفعه عن
الحمار الكثيف الشعر .

- انتظر يا افندم . لقد انتهيت . حان نورك الآن .

رد كريم بفخر : لا . لن أكون بعد حمار .. أنت لاتعرف إلى من تتكلم .

فكر الحلاق لحظة ، وهو يرفع المجز . وقد ارتسمت ملامح القلق على وجهه
وسأل محيراً :

- من أنت يا افندم ؟

علق كريم بطلاقة : لن أضيع وقتى لاخبرك من أنا . انشغل بهذا الحمار
فهو الزيون الذى يليق بك .

قال الحوذى وقد اكتسى بتوحش : أنت إذن تشتم حمارى . من أنت كى
تجرؤ على إهانة هذا العامل ؟

التقط كلمة «عامل» بدهشة من ذلك الأوباشى الرقيق ، فالحمار له حق الاحترام ، ليس كحيوان . ولكن بصفته «عامل».. ولبضع ثوان ، ظل كريم مفتونا بهذا الرد الذى خفف عنه طول الانتظار . ثم أدار ظهره الى الرجلين وألقى بنفسه فى الحر وأحس بالسكينة تهب عليه .

لا يمكنه الآن سوى أن ينسحب . فهذه المسرحية عند الحلاق قد أخرجته، وهو مضطر أن يعجل خطاه كي يصل إلى مبنى المحافظة فى الساعة المحددة لاستجوابه . أحس بالانتعاش وامتلاً بالأمل . وتهياً تماماً لمواجهة كل الشرطة المكاره القاسية التى تسبب له الضيق عند استجوابه . راح يقطع الدرب وهو يشق لنفسه طريقاً صعباً بين الجماهير التى سدت عليه الطريق .

توقف لاهثاً كي يفحص المبنى الكبير الأبيض الذى يعلوه العلم ، علم الحكومة . لم يأت هنا منذ وقت طويل ، تردد وهو يجتاز البوابة متذكراً أى سبب حقير أدخله هنا فى الماضى ، عندما كان ثورياً متكابراً كم هو خجول من هذه الذكرى التى تكشف عن غبائه آنذاك . كيف استطاع أن يفهم أنه الاكثر قوة . وأن ادعاءه ليس سوى مبعث للدهشة . لحسن الحظ ، لقد انصرم هذا الزمن البعيد . زمن خفض الرأس ، وارتسمت على وجهه دلائل الخجل والخوف . اندفع عبر الباب الأثرى المفتوح على مصراعيه كأنه مصيدة مستعدة ان تنفلق وتلتهم فريستها . هزته رعشة وانسال عليه عرق بارد . ليس من الخوف ، ولكن من مروره المفاجئ فى ظلال المبنى الضخم . تقلص أكثر . ارتدى زى مواطن لا افكار له أو طموحات مخلوق خاضع لقدره ويخشى كل السلطات . فى هذا الشخص الجديد لم يميز قط أشخاصاً آخرين يملئون القاعة الواسعة بالدور الأرضى . العين متحجرة وباهتة ، تنتقل من مكتب لآخر ، متوجهة نحو عقاب مؤلم . تصرف كريم كشخص يعرف المكان جيداً ، دق السلم الحجرى الكبير . صعد الى الطابق الثانى . رأى «عسكري» جالساً خلف مائدة ، يقرأ جريدته دون ان تتحرك عضلة واحدة فى وجهه . لعله بلاشك . لا يعرف القراءة . بل فقط يتظاهر بذلك . مد له كريم خطاب الاستدعاء أمسكه الآخر . وألقى عليه نظرة سريعة ، وقال هامساً :

- اتبعنى .

تبعه كريم فى صمت . بشخصه المسكين الصعلوك المختال . فتح الحارس الباب، وترك كريم يمر . ثم أغلقه كأنه يوقظ شخصا نائما . زكّم كريم برائحة مألوفة من صالة الاستجواب . رائحة غامضة تعطى الاحساس أن العبث البشرى يقوح من أناس تثير الغثيان . أناس من كافة الأنواع وكافة الأنحاء ينتظرون فوق مقاعد بجوار الحوائط . مجمدين فى استسلام تام ، يبدون كأنهم هنا منذ بدء الخليقة، بدا مظهرهم مغبراً ، وملابسهم بالية . أشبه بتمائيل قديمة تم إخراجها من بعض الحفريات . راح كريم يتأملهم لحظة وقد علاهم الغبار ، كأن شخصا يزورهم لأول مرة ، رفات سراديب الأموات . سحب منديله من جيبيه ومسح العرق من فوق جبينه كى يثبت لنفسه انه لايزال على قيد الحياة . فهم لتوه الحقيقة المؤلمة . فكل هؤلاء الناس يمثلون نفس ملهاته . التزموا الصمت واكتسوا بهذه السحنات المشاحبة على أمل وهمى أن يتصوروا أنهم موتى . ليس أمامهم سوى أن يمتثلوا لمخالب الطاغية . اعجب كريم من فنههم فى التظاهر ، وكان بالغ السعادة أن ينظر بعين الحسد لمثل هذه النماذج البشرية . جلس فى مكان خاؤ بأحد المقاعد وقد اكتسى بمظهر المبتئس . ظل ساكنا للحظة ، وحاول أن يتلامع مع هؤلاء الضحايا الصامتين ، ثم ويكثر من الحذر، راح يخاطر بالقاء نظرة الى أعماق المكان . جلس الضابط المنوب خلف مكتبه يستجوب رجلا ذا عينين معمصتين ، يبدو أشبه بهيكل عظمى ، كأنه جاسوس فى بلد فقير ومعدم . وعلى مسافة منه يقف شرطيان ذوى شوارب كثيفة يرتفعان لأعلى . كان كريم يعرف الضابط . إنه حاتم . نفس الشخص الذى سبق أن استجوبه . فاجأه هذا الاكتشاف وصدمه فى نفس الوقت . فقد اعتقد أن النظام الجديد قد قام بتغيير رجاله . يالها من سذاجة! كان عليه أن يدرك شيئا بالغ البساطة وهو أن سلطة الشرطة الدائمة هى فى امتثالها لكل الأنظمة .

فى أعماق الغرفة . جاء صوت حاتم غاضبا وناقما . بدا الضابط وكأنه يعانى مع زبونه . سمع كريم هذا الأخير يطلق تنهيدة طويلة على سؤاله المكرر ، بدا هزاله الشديد وكأنه يمنعه أن ينطق كلمة واحدة . أبدى حاتم دهشته وهو يهز رأسه من هذا الخارج على القانون وحتى لاينفجر ضاحكا . كان على كريم أن

يتذكر موقفه الحرج . فهو فى وضع لا يحسد عليه . وعليه أن يعيد كل خطمه . كيف سيمثل على حاتم الملهاة ؟ إنه يعرفه جيدا . وإن تمشى معه حيلته حيث ستبدو تحولاته المعنوية والمادية ، بعد سنوات ، مشبوهة أكثر . لذا عليه أن ينوع أداءه ، وأن يدخله فى مسألة الكرامة ، هذه الكرامة التى يتعامل معها حاتم بهمجية ويسعده أن يحطمها . قرر كريم أن يقدم له شيئا من الوقار الشكلى كهدية.

وبون انتظار . بدأ حاتم وقد نال ما يكفيه من زبونه وراح يصرفه بحركة غاضبة لأحد جنود الحراسة . وبعد لحظة ، بدأ يتمطع ، تنفس الصعداء . كأنه يتحرر ، ثم راحت نظرته تتفحص كل من الأشخاص الجالسين على المقاعد . كأنه يبحث عن شخص بعينه . لأنه فى كل مرة يهز رأسه دليلا على الاخفاق . فجأة لمع بريق فى عينيه ، وهو يرى كريم وسط هذا الجمع من الحثالة البشرية . ارتعدت أوداجه وارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتيه . كأنه قد كسب جولة جديدة .

صاح وهو يشير بأصبعه الى الشاب : يا كريم أفندى .

قام كريم وجاء ليقف أمام الشرطى . قال بلهجة متواضعة وهو يخفض عينيه وكأنه فى حالة تأنيب ضمير : السلام على سعادتك .

بدأ الضابط مبعوثا قليلا ، نظر بانتباه الى كريم وكأنه قد خُدر فى هويته

قال :

- يبدو أننى احلم ، يظهر أن الزمن لم يمر عليك . ماذا حدث لك ؟

راح كريم يحتفظ بعينه منخفضتين . ولم يقل شيئا . فهو يعرف أن الانطباع الاول تتوقف عليه بقية الاستجواب . راح يبحث عن كلمات بينما استكمل حاتم :

- اجلس . انت لاتعرف كم أنا سعيد لرؤيتك .

جلس كريم فوق المقعد الذى تركه سابقه لتوه وأطلق نحو الضابط نظرة

امتنان :

- لقد فهمت أننى كنت على خطأ ، سعادتك . ألا يمكن للشرطة أن

تنسانى؟

هتف حاتم : تتساک لکنک ترکت ذکرى لاتنسى . لقد كنت مستعدا لتدمير كل شئ . وعدتتى أن تقبض علىّ اذا وصل اصدقاؤك الى السلطة . أليست هذه كلماتك ، أم أننى كنت مغشوشا ؟

قال كريم : إنها غباءات . كنت أمزح مع سعادتك . كيف يمكنك أن تصدق إننى كنت أتکلم بجديّة ؟

– ماذا تقول ؟ هل تعاملنى كغيبى ؟

– ليحفظ الله سعادتك . استطيع أن أقول إن هذه الأشياء كانت فى لحظة ضلال . ثم لقد نسيت ، سعادتك ، ان هذا كان فى ظل النظام القديم .

– أمر جميل . هل أنت ثورى أم لا ؟ هل يمكن أن تفسر لى فيم يعجبك النظام الجديد أكثر من الاخرين ؟

صرخ كريم بصوت رفيع من الصعب أن أشرح ذلك . لكن هذا شئ يُحس به . لا يوجد أى شك أنه نظام جيد ، وان الجو تغير . على سبيل المثال، الآن اذا مشيت فى الشارع فان درجات الحرارة تبدو أقل .

– أه ... درجات الحرارة أقل . هل هذه هى كل المزايا التى تراها فى النظام الجديد ؟

– للنظام الجديد بلاشك مزايا أخرى ، ولكننى ربما لم أحظ بها ، سعادتك . انتهى الكلام ، بدا كريم فخورا بوجوده ، بينما بدا الضابط متجهما ، ومن الواضح أن الشاب يلف به . انه بالتأكيد يسخر منه ، لقد كان يعرف تماما عقلية كريم ، ولاشئ يجبره أن يسلك طريقا مخالفا . إذن هناك سر يناضل أن يعرفه . ويجب أن يعرفه .

انتظر حاتم مجابهة مع خصم جموح . موجود أمامه . ورغم كونه رجل شرطة ، فان لديه فرصة ، فى بعض الأحيان ، أن يعجب بالشجاعة القوية لروح الثورى التى تحرك الشاب . وهو سعيد أنه يحقق معه من جديد . فهو يتعلم أشياء كثيرة من هؤلاء الثوريين . أشياء جيدة للغاية ، ومن مركزه الأعلى . فحاتم يدرس كافة التفاصيل المتعلقة بموضوع الاستجواب .لذا يعاملونه كضابط مثقف . قادر

ان يحتفظ فى رأسه بمعلومات شاملة عن هؤلاء الشباب المجانين الذين يريدون قلب نظام الحكم . فى الحقيقة فكل معلوماته فى المهنة تتلخص فيما ينتزعه من استجواب بعض السياسيين . وهذا ما يريده من كريم فى موقفه الساخر . ابن الزانية هذا لم يوضح له شيئا عن موضوع الاستجواب سوى أن الجو أقل حرارة الآن منه فى ظل الأنظمة الأخرى ؟ إنه يسخر منه بالتأكيد .

راح الغضب يعتمل فيه ، ولكنه كان سعيدا . تأمل الشاب بعين الطبيب الفاحصة القلقة باحثا عن تشخيص للمرض بأقل درجة من العناء . لم يبد من كريم أى رد فعل . ظل محتفظا بموقفه . وهو يكتسى بالتواضع المأساوى والواقع عليه . جحظت عينا حاتم . انه فى قمة خيبة الأمل . خيبة حقيقية وهو يرى نفسه يتقبل توبة الشاب . لكن لاشئ يدفعه أن يصدق . اللهم الا أن هذا أمر بالغ السهولة . الثورى لا يتغير . على الأقل بهذه الطريقة . إنه مثل الشرطى لا يمكن للنظم السياسية أن تراه من داخله .

أطلق تنهيدة تسليم تعنى أنه لم يتنازل عن موقفه . ثم فتح الملف الذى أمامه وأخذ يتفحص بعين منهكة ومتعبة . ثم راح يقرؤه ، أصبح وجهه أكثر تعباً . وكأبة ، كأنه يبحث عن دليل يمكن أن يؤدي بالمستجوب إلى الاعتراف ، فجأة رفع رأسه وتأمل الشاب من جديد ، ثم تفجرت عيناه بعاطفة ما . بدا وكأنه يقتفى شيئا أكثر مهابة .. أما كريم فكان يخفى رجفة خفيفة من الخوف جعلته فى رهان مع نفسه على إحباط محاولات خصمه .

- حسبما قال المخبر الذى زارك . يبدو أنك تعمل ، وتصنع طائرات ورقية أليس كذلك ؟

- الحياة صعبة ، سعادتك . وأنا أفعل ما بوسعى .
- حسنا . كلمنى قليلا عن الطائرات الورقية . كيف هى ؟
أوصلت نظرة حاتم المليئة بالشك - مضيقه بهذا السؤال الغبى إلى قمة الميلودراما الساذجة . فهل يشك الضابط أنه يستخدم الطائرات الورقية لتصوير الأهداف العسكرية ؟ ولم لا ؟ فكل شئ جازئ فى خيالات الشرطة .

- إنها طائرات ورقية صغيرة . سعادتك ولا ضرر منها . ماذا تعتقد ؟

- لا عليك عم أعتقد . ولكن فيم تستخدم ؟

- تستخدم فى تسلية الأطفال . لا أكثر .

لم بيد حاتم مقتنعا . أما كريم فكان يعانى إنه لايستطيع أن يفجر القيد الهائل الذى يخنقه . استمر الضابط فى مواجهته بتحد ، فهو لا يوافق ببساطة على حكايته . وهو على يقين أن الطائرات الورقية تُستخدم فى بعض الأمور السرية . لكنه تردد أن يرتقى فوق هذه الرمال المتحركة . المليئة بالمكائد، وأن يخاطر بأن يفقد مهابته . أخذ يحرك يده وكأنه يحاول اصطياد ذبابة، وكانت هذه طريقته فى ترتيب الأمور .

قال . لنضع هذا الآن . أخبرنى عن رأيك فى الوضع العام بوضوح .

- أعتقد أن كل شئ على ما يرام . سعادتك .. أنا لا أرى شيئا يمشى بشكل غير طبيعى . أحس أن الشعب مبتهج . وأنه صورة نموذجية من السعادة .

- حسناً، دعنى أخبرك أنك متفائل جدا ، هناك أيضا أوغاد ، وأقذار يقومون بإثارة الأمور ، يبدو أنهم ليسوا سعداء من النظام الجديد ولا من غيره . ماذا يجب ان نفعل كى نعجبهم . أنا أسألك ؟

- لا اعرف ، سعادتك ، فأنا لا أشتغل بالسياسة ، وسوف أتزوج قريبا .
بدت هذه الكلمات الأخيرة على حاتم وكأنها كارثة . سأل بوجه يكسوه
الاشمئزاز:

- هل ستتزوج ؟

رد كريم بصوت رجل سوف ينتحر . أجل سعادتك .
أغلق حاتم ملفه بكل صلافة . وبدت الحركة وكأنها أبعدت الشاب من عالمه
قال وهو زائغ البصر :

- حسنا . الآن ، يمكن ان تبقى حيث أنت . ولكن حذار . فعند أقل خروج
على الشرعية سوف استدعيك من بيتك .

استعد كريم لأن يشكره عندما انفتح الباب فى هذه اللحظة، وظهر المحافظ

شخصيا . قام حاتم ساحبا معه كريم ، وأيضا مجموعة الاشخاص الجالسين فوق المقاعد . ولثوان ظل المحافظ واقفا عند عتبة مكتبه ، يفحص الصالة بعينيه الجاحظتين ، ثم راح يمشى ، وهو يخبب ساقيه المتموجتين وكأنه يمتطى حصانا ثم وقف قبالة كريم ، الذى أخذته المفاجأة ، وأسرع نحوه ، وأمسك يده وقبلها وهمس ببعض الكلمات غير المسموعة . ثم عاد الى مكانه وهو يلهث كرجل فوجئ بسعادة غامرة لايستحقها . لم يهتز المحافظ قط . ولم يتراجع فى خطاه . فقد اعتاد مثل هذه الأمور . واستمر فى الخبب ، فوق حصانه الخفى ، ثم خرج أخيرا من القاعة .

ترك المشهد الذى لم يتوقعه كريم جاثماً منهارا تماما . فقد حاول أن يمنعه معتقداً أنه يهجم عليه . ولكن ما رآه كان أشد من هذا . فقد انقلبت الدنيا . وهذا الكريم الذى يعتقد أنه يعرفه قد أصبح فجأة غير محسود الجانب . تأمله بعين مندهشة وكأنه ينظر الى حيوان لئج ، راح كريم يرمقه بعينين بالغتى النقاء . لقد خاطر أن يستخدم كافة أساليبه من أجل أن يبهر حاتم . وأن يقدم اليرهان الأكيد لتويته انه لايشك أن مهمته قد نجحت .

أشار له حاتم بالجلوس . قال :

- يا إلهى ، أنت تدهشنى أكثر فأكثر .

- لماذا ؟ سعادتك .

- من الصعب على أن اصدق أنك فعلت هذا . أن تقبل يد المحافظ

قال كريم : ليس هذا مدهشا ، فالمحافظ أبونا فى كل شىء على الأقل هكذا أراه .

فكر حاتم للحظة . فاهتمامه بالشاب بدأ يزيد . وفى هذا السقوط المثير الباد أمامه بلا مقياس ، لم تنتابه فكرة براقة بصفته شرطيا ذكيا . ربما كل شىء لم يتضح بعد .

- انن ، مادام الأمر هكذا ، ربما نستطيع ان نتعاون، لعلك لاتريد، أليس هو «أبوك» ، كما تقول . هل علمت بموضوع الهجوم البشع ؟

- لا طبعا . ماذا يمكننى أن افعل ؟ .

- أريد أن أعرف رأيك فى بعض الإعلانات التى ظهرت أخيرا فوق جدران المدينة .

سأل كريم ببراءة : أى اعلانات ؟

قال حاتم . سوف أشرح لك . إنها اعلانات تصور وجه المحافظ الى جوار كلام مكتوب ملء بالتقريظ . تقريظ كريم . هل رأيتها ؟

- هل هى الإعلانات التى تتكلم عنها ، سعادتك ، بشرفى ، إنها إعلانات جميلة للغاية . فى كل مرة أرى واحداً منها . أقف لأتأملها ، لدرجة أننى حفظت النص عن ظهر قلب . هل تريد ان أسمعك لك ؟

- وفر عليك تعبك . وأخبرنى هل يمكنك أن تدلنى الى مصدر هذه الإعلانات . من طبعتها ومن علقها على جدران المدينة ؟

- طبعا سعادتك ، أعتقد أنها شئون المحافظة . فهذه الإعلانات لاتقول سوى الحقيقة عن محافظتنا العبقرى .

- انت مخدوع . فشئون المحافظة لم تطبع هذه الإعلانات ، ألا تعتقد ان زملاءك القدامى قد فعلوا ذلك ؟

هتف كريم : ياله من يوم أسود ! أنا مندهش . لماذا يتفنن زملائى القدامى بمدح المحافظ ؟

- لعل جنونا أصابهم . أحاول أن أفهم .

حاول حاتم أن يكشف مدى الارتباك الذى سببه له ظهور هذه الإعلانات بحثا عن أقل بادرة يمكن أن تمده بأمل يتوصل به إلى منظمى هذه الحملة المسمومة التى تأهبت لها كل شرطة المحافظة ، وموهبتة كضابط ماهر لم ترق إلى أى درجة من الشك ، فهذه أول قضية من نوعها يراها منذ عشرين عاما انشغل فيها بالقضايا السياسية . عمل مهيب ، وفى نفس الوقت بالغ الخطورة يخرج تماما عن المألوف . لم تتوصل تحريات الشرطة الى نتيجة فى أى مكان . تسأل حاتم عم اذا كان قد دخل عصراً ثورياً جديداً ، يلزمه أن يعاود النظر فى طرق التحرى لقد

ولد أسلوب جديد . وظل هناك كغيبى ، يجهل مصدره وأسبابه مما يصيبه بالحسرة
- إذن، فأنت لاتعرف شيئاً .

لم يكن هذا استجاباً حقيقياً . ولكن هناك محاولة أخيرة لامسك معصم
الحقيقة. بدا كأنه يسمع إجابة كريم بلا أمل كبير. رد كريم بصوت رخو وهو يدقق
فى الضابط بنظرة فارغة المعانى :
- ابدا سعادتك .

غزا «حاتم» احساس ثقيل بالفشل. واكتسى وجهه بالاخفاق. لقد انتهى
الاستجواب الى فراغ. لم يأخذ شيئاً من هذا الثورى التائب. الذى سيتزوج عم
قريب. ويصنع طائرات ورقية لتسلية جموع الخاطئين، هل يمكن أن يسقط فى
حضيض أشد عمقا؟ لقد باغته وسبب له نوعا من الندم العبثى. ترى هل هو من
طراز الثوريين الضائعين؟ لايزال لديه الكثير منهم. فكل المنتقمين يستعدون لزرع
الفوضى فى طريقه. طالما أن شيئاً ما مات لتوه، مجرد شعلة بسيطة من حريق
ضحخم. يكاد أن يحرق العالم.
اتكأ على مكتبه، وغطى جبينه برأسه وقال نون أن ينظر إلى كريم: يمكنك
أن تذهب الآن.

قام كريم وحيا الضابط وهو ينحنى أرضاً، ثم استدار وولى. وفى الممر
أطلق غمزاته الخفيفة من رأسه يمينا ويسارا لهؤلاء البائسين الذين عليهم الدور
من بعده. ولكن هؤلاء لم يعيروا تحيته أى انتباه. خرج الى القاعة وأغلق الباب
خلفه بهدوء. وكأنه يظهر مافعله للحاجب.

ويعد قليل توقف فى الشارع الذى بدا خاليا تماما، تحت ظل شجرة،
واستدار كى يفحص الطريق، وعلى مسافة تفصله كثيرا عن مبنى المحافظة، حيث
اختفى المبنى الأبيض الكبير بعيدا وسط ضباب الحر وبدا أشبه بسراب. أحس
كريم أنه خرج من حلم.

(١٠)

راح كريم يتابع الأرداف الذابلة أسفل الملابس الخفيفة للنساء وهو مستند على سور الكورنيش الحجري. وقد خُلب تماماً باختلاف أوزانهم، إنهن هناك من كافة الأشكال والأحجام، وفي الضوء الرمادي، علامة غروب الشمس، تبدو هذه الأرداف المهتزة وكأنها تمتلك حياة ذات إيقاع واحد وتعقد مع كريم اتصالات رقيقة لذيدة، فصاحبات هذه الأرداف في أغلبهن دميمات ولا يثرن الرغبة لدى أي قاتل ساد، لم ينتبه كريم كثيراً إليهن. لم ينظر الى وجه امرأة إلا نادراً. فقد كن بصحبة رجال بدناء متجهمين يلبسون ملابس الصيف: من الاقمصة القصيرة الاكمام حتى البيجامات القطنية، يقزقزون لب البطيخ ويرعبون زوجاتهم وبناتهم ويلقون على كريم نظرة فلاح حذر يحرس أبقاره ضد لص مرتقب. راح كريم يرد بسخرية على نواياهم الخبيثة. يحدث هذا كل مساء. النزهة المعهودة للأسر من أجل الترويح عن النفس، وشم هواء البحر عقب حرارة النهار الخانقة. كان هذا المهرجان من الأرداف يمثل الإيقاع اليومي لكريم، الذي نزل من السطح من أجل السهر، يتحين فرصة تواتيه أحيانا بأن يجد امرأة وحيدة، مستعدة للمغامرة، فيروح يمارس هوايته البسيطة والبدائية. فكريم يعرف كيف يتصرف مع النساء مثلما تصرف مع ضابط الشرطة، إنه لا يخاطبهن بكلمات ذكية خشية النفور. فالغباء علامة أكيدة أن الحياة تنور.

لكنه لم ير أحداً يأتي في هذا المساء. فالصيد نادر، إنه هنا منذ ساعة، ولم يصطد أي فريسة. فكل النساء يعبرن في صحبة، أو إنهن خادמות دميمات يسبحن في أثرهن أطفالاً أصغر سناً. بدأ كريم يحس بالعصبية، فها هما عاشقان

متشابهى الأصابع حتى لايفقد أى منهما الآخر يمران من أمامه، تبدو عليهما العجرفة والكبرياء. وبشكل ألى راح كريم يتتبع ردفى الفتاة، فجأة هفت ذكرى فى مخيلته، لم تكن سوى ذكرى مضاجعة، لان هذه تذكره بوجهها، إنها الغانية اللطيفة الصغيرة التى أواها ذات ليلة ولم تعد إليه ثانية، لقد أخبرها أن عليها أن تعتبر منزله بيتا لها .. وتصرف بكرم معها، حقا إنه فى هذه اللحظة لم يتمسك كثيرا بها. كان ذلك بمثابة دعوة عابرة من أحد أن يلينها ويستميلها أكثر فى مسألة المال. ربما أنها فهمت نيته. لقد غمرته موجة من الشفقة، شيء غريب، فوجه الغانية الصغيرة مائل فى مخيلته، أصبح بالنسبة له وجها مألوفا منذ أمد طويل مألوفا، مثل وجه أمه. ندم فجأة لتصرفه الشديد الحقارة مع هذه المسكينة. ترى أين يمكن أن توجد الآن؟ ود أن يبحث عنها. خاصة أن شرطة المحافظ تطاردها وتمنعها من عملها، أنها ايضا ضحية لهذا المحافظ الملعون.

بالنسبة لهذا الأخير، فإنه قد مر الآن حوالى أسبوعين على استلامه رسالة هيكل، الذى يطلب فتح باب الاكتتاب الشعبى لإقامة تمثال للمحافظ ، لقد نشرت كل الصحف الرسالة فأثارت الدهشة بين الأشخاص الأكثر ارتباطا بالمحافظ وسلطته الديكتاتورية، وانتشرت الاقاويل بأن محافظ العاصمة تضايق من هذه الشعبية ، وبدأ يتصرف كرجل قادر على تنظيم دعاية جميلة لأهدافه الخاصة. ففى هذه الأثناء راح المواطنون الذين لايعرفون من أين تاتى الرياح، يتعجلون كشف الحقيقة. فالنقود تهب من كل مكان، وقيل أن هناك قفة سماوية لانتضب ابداء، فقائمة المتبرعين تُنشر كل صباح فى الصحف، وكريم نفسه يود أن يذكر اسمه فيها وأن يساهم بقرش لحساب التمثال. ولكن لدرجة أن بعض القراء المجانين والاقبل وعيا، كتبوا للصحف بمقترحات عن تمثال صديقهم وألحوا الى مكان مفضل يوضع فيه التمثال مستقبلا. وبلغ الهديان قمته. واقتربت اللحظة التى اقترح فيها هيكل أن ينفذ حيلة هزلية جديدة اذا لم تنجح هذه الأخيرة عن ابعاد المحافظ للأبد، كان على كريم أن يذهب إليه هذا المساء ليناقشه فى الأمر، فقد هزته مسألة المحافظ فجأة، لكن يجب عدم تجاهل الأمور غير الظاهرة. ففى أعماقه، إن كريم يتمنى أن يستمر المحافظ بضعة أشهر، وهى الفترة التى سيتم

فيها نحت التمثال ، كم غريب أن يرى المحافظ جالسا فوق قاعدة. وهذا شيء محتمل الحدوث.

حل الليل بطيئا ، وأضيتت المصابيح، فجأة نثرت اساورها اللامعة كالكلائي بطول الكورنيش أصبح الهواء أكثر قابلية للتنفس وتآخرت نسمة المساء . هبت رائحة الذرة المشوى ممزوجة بصيحات الباعة الجائلين . خلا الكورنيش شيئا فشيئا من العائلات ، لم يبق سوى بعض العشاق . انحشروا فى الاماكن المظلمة من أجل لمسات سريعة مثيرة للخجل .

شرد كريم بعيداً ، أحس باليأس من لقاء الفتاة ، لاحظ شبح رجل يستند على السور. على يساره بمسافة، أدار الرجل رأسه بسرعة حتى لا يرى وجهه. كان يقف خلف دائرة الضوء الساقط من المصباح القريب. صدم كريم فى هذا الموقف المبالغت وهذا التصرف اللئيم، فالتنزه الوحيد الذى يختفى فى الظلام هو طاهر صديقه القديم فى الحزب الثورى. لم يره منذ أمد طويل. إنه واثق أن بصره لم يحدده بنظرة واحدة، فبالنسبة له كان شبح طاهر معروفا تماما فى ظلام الليالى، خفق قلبه، وأحس بالخيبة، ارتبك للقاء زميله القديم، فجأة انتابه شك مرعب، فهذا اللقاء بعيد عن المفاجأة، يبدو أن طاهر يتجسس عليه منذ وقت طويل. ترى ما السبب؟ لماذا لاياتى ليحييه، إنه يعرف طاهر جيدا، لذا يردد هذه الاسئلة، فطاهر مؤامر بطبعه، يقدر المناورات والدروب الطويلة الخفية، ولايمكن أن يقترب من شخص دون أن تلوح حوله بعض الاتهامات المريبة. قرر كريم أن يتركه يلهو. فلدنيه بعض الوقت ليضيعه قبل أن يذهب الى هيكل.

راح يمشى ببطء كى يمنح طاهر فرصة للتجسس عليه. كم مزق قلبه أن يجد نفسه مُجدداً فى صحبة طاهر. لم تكن لديه أى رغبة للنقاش معه فى المسائل الاجتماعية والسياسية، فهما منفصلان تماما الآن. بالاضافة أن طاهر لا يميل الي التراجع ، ربما سيعامله بقسوة، لم يستطع أن يبعد عن ذهنه بعض الذكريات المشتركة ، لقد ترك فى نفس طاهر بعض الأحداث المدمرة، فقد تم القبض عليهما معا، وبخلا السجن معا، وكان الصديق الأكثر قربا منه روحا.

أحبه وأعجب ببنبله اللامبالى، وشجاعته فى الخصومة . كان صبيا ذكيا لامعا، ينتمى لأسرة من العمال الفقراء تقتطع من خبزها كى تدبر تعليمه. وقد تخرج من المدرسة بعد دراسات مناسبة. ورفض كافة الاغراءات الكريمة كى ينضم الى الثورة منذ كان ضد السلطة.

فجأة لمعت فكرة، بدا كأنه نساها تماما من ذاكرته. لقد لاحظ الآن أن طاهر يمسك شيئا فى يده، تذكر أن زميله اعتاد أن يتنزه دوما مع قنبلة من صناعته. وعندما سألته إذا كان يعتمد عليها هز رأسه بكل ثقة ويصوت أجش: «الأقذار يستحقونها، سأجد مكانا لإلقائها»، كان كريم واثقا أن طاهر لم يفقد قط أساليبه الغريبة. هذه اللقافة التى يحملها يمكن أن تكون قنبلة ويخاف من محاولة اغتيال ضده شخصيا. يمكن لطاهر أن يلقى هذه القنبلة فى وجهه ويلا شفقة مادام أنه يعتبره خائنا. فهو يعرف عقليته ونظرته لشرفه الثورى. فطاهر لا يتردد فى إلقاء قنبلة على أمه اذا لم تتفق مع رأيه. ازداد اضطرابه. راح كريم يبحث عن وسيلة للهروب من هذه الورطة. فأخذ ينظر قلقا الى الكورنيش الذى خوى من المنتزهين. لم ير ركنا مناسبيا للاختباء، لم ير سوى عربة بائع ذرة مشوى واقفة فوق الرصيف تحت ضوء المصباح. هل يختفى خلف العربة؟ غبى. فسوف تقع العربة عليه. ثم إن التاجر يتأهب لفلق محله وكأنه يتوقع اقتراب كارثة. أسرع كريم الخطى، وأحس كم هو سخيف ولم يجرؤ أن يستدير ليرى اذا كان طاهر لا يزال يتبعه.

ناداه صوت أجش . وأوقفه:

— ياكريم. لست فى حاجة للهرب منى.

استدار كريم وابتسامته تغطى شفثيه. وتصرف كامرأة تقابل عشيقها القديم الذى خانته وهجرته. فتح ذراعه علامة على حسن الاستقبال:

— سلام، يا أخى طاهر. يالها من فرصة سعيدة ! كيف حالك؟

أراد أن يأخذ طاهر بين ذراعيه. ولكن هذا راح يعانقه وهو يعود القهقرى،

رد طاهر:

— على مايرام. وأنت. هل تقضى وقتا سعيدا؟.

- طبعاً. صدقتى، كم أنا سعيد لرؤيتك. فأنا لم أرك منذ وقت طويل.
قال طاهر: معذرة. فقد كنت فى السجن، ومن الصعب على ارتياد
الصالونات والمقاهى.

بدأ وجه طاهر شاحبا غائر العينين من الحرمان والمغامرات التى لا حصر
لها، مما يدل على أنه منبوذ تماما، ينعكس فى عينيه تحجر شديد يميز المناضلين
الذين ينشدون مثالية بعيدة. رمق كريم بكل احتقار، وأحس فيه بشئ غامض،
شئ من التعاطف لزميل خان القضية. لكنه ظل دائما حاضرا فى الذاكرة. بدا له
أن كريم ينظر إليه يعين الاتهام. بنظرة قاض لا يرحم. شخص ماهر ساحر
ومدهش له مثل ظروفه. فى كل الفصول، كان يرتدى بدلة قديمة رمادية اللون.
مرتقة. وقميص بياقة منشاة ورباطة عنق داكنة. هذا الزي الخشن لموظف صغير
يتناقض مع وجهه الثورى، كأنه شخصان متراكبان. كان مبدأ طاهر أن على
الثورى الحقيقى أن يرتدى ملابسه بسرعة، لذا انكر السلوك البوهيمى لبعض
الزملاء. كان دائم الشجار مع كريم لان هذا لا يرتدى رابطة عنق.

اربكته ثقة زميله. لم يعرف كريم ماذا يقول؟ فالسجن لم يغير «طاهر»
كثيرا فهو يأخذ كل شئ بجدية. أحس بالذنب لانه هنا. يبدو مزدهرا، أمام هذا
الخارج من أعماق الزنزانة الذى يتهمه ويلعنه. رغما عنه. لم يكف عن النظر إلى
اللفافة التى يمسكها طاهر فى يده. انه خجل من جبنه. ولكنه أقوى منه. ارتعد
وهو يفكر فى القنبلة. لاحظ طاهر قلقه وهو يطلق تنهيدة متشنجة فبدأ كأنه وجد
شيئا يبعث على التسلية.

قال بكل جمود: لاتقلق. فهذه اللفافة ليست قنبلة. انها أحذية قديمة أحملها
الى «الجزمى»، لقد انفصل الكعب تماما. وانت ترى أننى مضطر للمشى حافيا.

احتج كريم حائرا: كيف لك أن تعتقد ذلك؟

ومع ذلك أخفض عينيه كى يتأكد من حسن نية طاهر، رأى زميله حافيا
وظل اللحظة مذهولا لا يستطيع أن يخلص عينيه من قدمى طاهر، إن ياقته بالية
كما أنه حافى القدمين، يالها من فكرة ساخرة! تردد كريم بين الضحك والعزاء.

- أنا آسف حقاً يا أخى طاهر ،
- لا تأسف على شيء، الأمر لا يهم، لقد عانيت من كافة المآسى، ولست فى حاجة لأن أعيش فى شقة تقع على السطح، أحب القصور كى أدمرها .
هتف كريم: إنها غرفة البواب.
ثم أكمل بصوت خفيض: كيف عرفت أين اسكن؟ بشرفى أنت تتجسس على..

ابتسم طاهر بسخرية، وكان كريم طفل ساذج وعليه أن يعرفه، قال
- نحن نعرف كل شيء عنك، أنت تتصور نفسك ذكياً، ولكننا نعرف كل شيء مما تدبرون أنت وزملاؤك، هل تعرف أن الشرطة ألصقت فىنا عبتكم، لانستطيع أن نتحمل طويلاً، ولهذا أردت أن أتحدث اليك.
كان يهمس كمؤامر، رغم أن الكورنيش خال من كل أنفاس البشر، سأل كريم وقد أثاره هذا الهمس:

- أى عبت؟
- هذه الإعلانات التى تتملقون فيها المحافظ، هل تعتقد أننى لا أعرف مصدرها؟

- قيم تزعجك؟
- أنها جعلنا أغبياء أمام الشرطة، ولا أحب هذا، فلسنا مهرجين ،
انتابت طاهر فكرة أن الشرطة تعامله كشخص هزلى ينتهج اساليب بدائية لقلب السلطة، فهو يحس بسعادته كثورى، حين تلقى عليه مثل هذه الاتهامات، بكل ماضيه كمناضل، وكل هذه السنوات فى السجن، تخيل سقوطه بين ايدي الشرطة فملأه الغضب ، وزاد ألمه الداخلى بالشجن، من زميل النضال القديم، هذا الخائن الذى يوجه له مثل هذه الإهانة، قال كريم:
- لا تتفعل، فالشرطة لاتشك فىك قط، إنهم يعرفونك بما فيه الكفاية ويدركون أنك من الجادين،

وأضاف كأنه يكلم نفسه: مثلهم،

سأل طاهر بجدّة ماذا تعنى؟

- أعنى أنك بعيد عن الشبهات، فالشرطة تعرف أن الثوريين من طرازك لا يرتكبون هذا، أنت لاتعرف أن الأمور تغيرت ، إنهم فقط يثرثرون معك أثناء الاستجواب. ثم إن الحكومة تمارس أساليب البوليس السياسى التى يستخدمها أيضا الطبيب النفسى، إنهم يعرفون كل شىء عنك. ويعلمون أنك لايمكن أن تغير اساليبك الى هذا الحد.

قال طاهر بنبرة مريرة فى صوته على كل، فقد تغيرت.

ثم راحا يتكئان على السور أمام البحر، صامتين، وقد ضاعت النظرة فى هوة عميقة، سوداء تمتد أمامهما، أحس كريم بالارتياح، لكن طاهر شعر بالاحباط، وارتقاب الهزيمة أو الموت، فلم يستطع أن يعرف أى سكينه، استدار ببطء نحو كريم، كأنه ينتظر منه حركة أو كلمة ندم أو أسف، لقد جرب كابة الارهابى الملتزم بعمليته والمضطر لاستكمال واجبه الدموى، ورغم المحبة والمودة التى تربطه بضحيته، فإن قلبه يدمى، أراد أن يتوسل الى كريم كى يتخل عن جنونه ويعود الى مثاليته السابقة، أغرقت الشفافية وجهه النحيل. وكأنه يسكب الدموع.

هذه النظرة للمقاة عليه أوخرت كريم كأنها سهم ، فقلبه ايضا يدمى. أراد أن يحدث ذلك لظاهر ليذكره بالأوقات العصيبة، التى فاحت بعفونة البؤس والمعاناة، لقد مارس السلام مع هذا العالم البشع الكريه، إنه لايريد أن يغير شيئا. فهو يأخذه على علاته، بعرجه وعميانه كشخص فى حاجة ماسة للحب، لم يؤمن كثيرا بمأساة الشعب. هل كان ثريا؟ لقد كان الاكثر فقرا بين الفقراء. ومع ذلك فهو سعيد، راح يناضل فجأة ضد هذا الشبح الفظ القادم من الماضى كى ينتزع منه بهجته، وقال بلهجة مليئة بالاستفزاز والكبرياء .

- أجل. لقد تغيرت. وأهنىء نفسى على ذلك.

استند طاهر عليه. وقد تشبث ببطن سترته، ثم اتكأ على السور:

- هل تعرف أن زملاء نا مسجونون ويتعذبون، بينما أنت تتسلى بتعليق

الصور على جدران المدينة تمدح فيها الجلاد.

- اسمع يا طاهر. بعد كل شيء أنا لم أؤخذك وما أفعله لا يمكن قط أن تفهمه. ولكن اعرف أنها الوسيلة الوحيدة لمحاربة المحافظ.

ضحك طاهر ساخرا : يالها من طريقة غريبة ! اعرف استاذك . لقد سمعت كلاما عنه، فهو من نفس جنس المحافظ، رجل ثرى يعيش كالامراء. كيف يمكن أن يفكر فى ألم الشعب؟

هتف كريم: لاتمس هذا الرجل. فأتنا أحبه. اسمعنى. وصدقنى. لن انفصل عنه قط. ولو طلب حياتى ، فلن اتردد فى الموت من أجله.

أحس طاهر أنه قد أفرغ دمه. فقد هزه عنف هذه المشاعر كأنها سبة موجهة إليه، إنه يحب الشعب، ولأن كريم جزء من هذا الشعب، فقد احتفظ نحوه بعواطفه وثقته، وغفر له دناءته، وقد تمنى دائما ألا يكون انفصالهما سوى حدث عابر، وأن يعود كريم طواعية الى الثورة، ولكن هاهو يراه بعيدا عنه، بمثاليته التى يحارب ويعانى من أجلها إنه يراه مرتبكا فى عالم جديد تماما، حيث هو، طاهر، غير معجب به، استبدت به الغيرة، وانفتح فى قلبه جرح غائر، بدا له الليل مسمما، بلا نجوم ولا بحر ولا عقد اللؤلؤ الذى ينساب من المصابيح ذات الأقواس اللامعة، كل هذا لم يستطع أن ينقذه من هذا الموت المقيض، دام الامر لحظة، ثم جاءت حقيقة الثورة لتنتزعه من ألامه، وقد دفعه فضول مريض أن يقترب من الرجل الذى يضعه كريم - بكبريائه الجهنمى - فى مكانة أعلى من الشعب المقهور، فإذا تمكن أن يكلمه لحظة فى حضور كريم، فسوف يتمكن من تدمير هذه الهالة التى فى مخيلته، سوف يكشف له الغرور، والعدم، ومكر الغواية التى تتسم به هذه الروح الخادعة، المنغمسة فى النعيم، إن له تأثير الساحر فى السيرك ، ربما سيفهم كريم آنذاك كم هو مخنوع، وأن كل هذه المحاولات الغبية لقلب السلطة مصيرها الفشل. وسيعود الى مبادئه الكريمة لمعركة حقيقية. هذه المغامرة تستبد به جنون، ومن ناحية أخرى فهى ضرورية له، فهو فى حاجة الى كريم من أجل مهمة قادمة - من أجل خدمة الثورة. لقد جرب طاهر كافة محاولات الاغواء. وعليه أن يستخدم حيلة أكثر مرونة لايقاظ ضميره الثورى لدى بعض العمال العاطلين. قال بهدوء يثير الدهشة :

- أريدك أن تفعل شيئاً ما من أجلي.

- ماذا إذن؟

- حسن ، أريد مقابلة هذا الرجل الذي تحبه كثيراً. وبالعيش والملح الذي أكلناه سوياً ، اقسام أن توصلنى بهذا الرجل، أحب أن أتحدث معه. حاول كريم أن يبتسم، تجهم وجهه فجأة، فقد بدا هذا الكلب وقد اسعده بشكل ملحوظ، قال:

- بكل سرور، أنا واثق أنه يحب أن يتعرف عليك. أنت تعرف أنه متعدد الأفكار. ويهتم بكافة الأنشطة الإنسانية.

قال طاهر وقد فوجيء بهذه البساطة، كأنه وقع فى فخ: أنا سعيد بالتعرف عليه ، هل يمكن أن تصحبني اليه هذا المساء ؟

- كما تشاء، الآن أنا فى طريقى لمقابلته. ياعزيزى طاهر. أتمنى أن نعود من جديد معاً، فأنا لم أكف عن التفكير فيك.

فى هذه اللحظة، لاح شبح شرطى يمشى بخطى وثيدة بطول السور. وقف أمامهما، تجمد الشابان من المفاجأة ، فهذا ممثل النظام يبدو كغول جائع لمهمة هامة على الكورنيش، انتظر فى صمت أن يكشف لهما طبيعة التهمة التى يوجهها لهما.

زمجر الشرطى: التجمعات ممنوعة. هيا، انتشرا..

قال كريم مفتوناً بهذا النزىل الطارىء: لكننا لسنا سوى اثنين.

رد الشرطى اثنان أو مائة إنه نفس الشئ. هيا انتشرا.

وتابع سيره بطول السور فى صمت. هتف كريم:

- هل سمعت يا ابن العاهرة؟

قال طاهر: إنه شخص مسكين ينفذ الأوامر، إنها ليست غلطته. علينا أن

نعلمه.

- بشرفى أنت مجنون. هل تعتقد أننى سأعيش آلاف السنين. ليس أمامى

سوى بضعة سنوات، وتريدنى أن اقضى وقتى فى أن نعلم هذا القاتل النضال المسلح.

هز طاهر رأسه بحزن، كشخص لا ينتظر فهما من مخاطبه . عليه أن يسرع الآن لرؤية هيكل وأن يواجهه بما يفكر فيه. قال.

- حسن، هيا، ولكن يجب أن أرتق الحذاء عند «الجزمجي».

- فى مثل هذه الساعة لاتوجد محلات تصليح أحذية مفتوحة.

- ماذا تعتقد. أنا لا ألبس حذاء من عند «جزمجي» رأسمالي. إنه زميل يحرس محلا مفتوحا طيلة الليل. وأنا على موعد معه. وهو ليس بعيدا عن هنا ..

تعال معى.

هز كريم رأسه بالموافقة ، ثم وضع ذراعه تحت ذراع طاهر وراحا يضربان الطريق. عبرا الشارع وغرقا فى أعماق المدينة، تاركين الكورنيش خلفهما.

وبعد التحيات، جلس الثلاثة فى صالون هيكل. وقد التزموا الصمت. بينما راح «سرى» الخادم يقدم المشروبات المرطبة وكأنه يمشى أثناء النوم منذ أمد طويل. لم يتوقف «سرى» عن القيام بواجبه. ولكن أياً منهم لم ينتبه إليه. فأهمية هذا اللقاء وغرابته تسمح للمرء بالشroud. انتهى «سرى» بوضع ثلاث زجاجات من مشروب الورد فوق المائدة الصغيرة المنخفضة، خرج من الغرفة، ولم يقطع الصمت شىء.

راح هيكل يتأمل طاهر بفضول عالم أثرى يدقق فى قطعة نادرة. فهو ليس حزيناً لهذه الزيارة، طالما أنها تتبع له الفرصة أن يدرس زميل كريم القديم عن قرب. إنه أكثر ثوار المدينة خطراً، شعر أنه متأهب للانقضاض، ولكنه بدأ بالغ الادب، ولا يجرو على قطع الصمت بكلمات لثيمة. جلس على طرف المقعد عبوساً وخجلاً، لأنه استقبل إثنين من «الغلبة». كانت النظرات التى القاها على كريم بليغة المعنى . وكأنه يعتبره مسئولاً عن ذلك الموقف الصعب. انتظر هيكل بفارغ الصبر أن يعرض عليه شكواه. فكر فى أن طاهر قد وصل به الامر أن يأتى لبيته. وأنه جاد فى رؤيته يعمل، ترى أى برهان عليه أن يقدمه له. لمواجهة مفاهيم غريبة من شخص يختلف عنه شكلاً ومضموناً. راح هيكل يئن من الشفقة. فالنضال أمر غير شرعى، ترى هل جاء هذا الرجل الكهفى المتعصب للعنف. ليثير استفزازه وماهى الدوافع التى وراءه ؟ هل يملكه احساس بالضياح؟ وهل يجب أن يكون

الثورى مصابا بالمرارة والزوجة، فلا يستطيع مقاومة جاذبية السخرية ؟ بدت له حالة الرقة التى اكتسبت زائره، وكان طاهر قد جاء له يعلن حبه وليس لعناته.

كان فى اعماق طاهر صخب واحتجاج، ونوع من النفور، تماسك فى نفسه وبدا أشبه برجل تحاصره الفئران. فزميله «الجزمى» قد أعاره صندلا كان يملكه زيون ميت، زادت عصبيته وهو يحرك ابهامه عبر رقائق الجلد. لم يعرف السبيل لبداية الحديث، إنه ينتظر لطف وجاذبية مضيئه، الذى يرتدى روبا قمرزيا، وقد بدا وراء المائدة كشخص من علية القوم يستقبل زائراً تافها. الشىء البشع حقا أن طاهر يعى فقره. انها المرة الأولى فى حياته التى يحس بازدياد المأساة. أحس بنفسه ضائعا فى الصالون البرجوازى ذى الاثاث اللامع، والمقاعد الذهبية المكسوة بالقטיפه الحمراء التى بدت له بشعة، هو الذى قضى عمره فى الاكواخ والسجون - يرى الآن الثراء أمام عينيه - تمرد طاهر ضد الثراء وليس ضد الرجل الذى شرفه فى منزله، لان مفاهيم هيكل، مشوشة. ويجب أن يبلغه أنه لن يقترب قط من رجل من طرازه. فهو ليس جلادا ولا عبدا. ولكنه يناضل السلطة بطريقته، طريقة مشينة يدفع فيها دمائه ثمنا لتمرده. لم يفهم طاهر التمرد نون جرعة ما من الحقد، لم يتذرع بالصبر وهو يكشف فى بيت هيكل كافة ما به من أسباب الغضب الذى يكنه لكل المخلوقات الظالمة. بدأ يتصرف بغباء تجاه خصمه، وكأنه يتمتع بإغاطة بساطة وهدوء طاهر، أحس باهانة لاتغتفر لنضاله الأبدى الذى لا جدوى له. ربما أن هذا كله ليس سوى خدعة. يمكنه أن يبحث عما يفويه. ويجذبه لعالمه المائع والهش، لم يترك نفسه تفعل، فحضوره هنا يهدف إزالة مخاوفه من هذا الأرستقراطى ذى السحر الخفى لعله ينقذ كريم من الدمار الذى يهزه. بدأ - هيكل أفندى ؟ لقد أتيت ..

قاطعه هيكل بصوت رقيق وهو يرفع يده بحركة هادئة. اعرف لماذا جئت هل يمكن أن تنتظر. دعنى أولا أعبرك عن سرورى لحضورك. رد طاهر. لقد أثلجتنى طبيبتك، ولكن معذرة. ليس هذا وقت المجاملات. جئت لأتحدث معك، لقد قلت لهذا المرتد - وأشار الى كريم بإصبعه - عم أراه فى نشاطك، فهو يتعارض مع شرفنا الثورى. لأن الشرطة تلتصقه بنا. أريد أن أعرف

بالضبط ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

ابتسم هيكل بأدب جم أمام هذا الهجوم من شخص وغد ساذج، لقد راح طاهر يدافع عن شرفه كثورى، كل ما ينشده ألا يصل الأمر إلى الشرطة، أى ثورة وأى هياج فى الصوت يتجاوزان شرفه ، تماسك وهو يبدى احتراما لجلاده، أى موقف ساخر. ومع ذلك لا يستطيع أن يحطم الدائرة التى حبسته فيها السلطة الدموية، إنه يمارس لعبة الشرف والأخلاق مثلما علموه أن يفعل. ولم يخرج منها قط، فهو ليس سوى سجين زنزانة. لأن الموضوعات التى أسس عليها نشاطه كانت هى نفسها التى يستخدمها الخصم. خشى هيكل ألا يرى ضيفه قسوة عينيه. فقد يشجع هذا ضيفه. قال وهو يكسب وجهه ملامح المفكر

- حسنا تكلمت عن اللعبة. لأننا نلعب جميعا ، أليس كذلك يا طاهر افندى؟
أنا أسف بشدة أن لعبتى لم تعجبك. وسببت لك الملل، لكل إنسان الحق أن يعبر عن تمرده بأسلوبه. أما اسلوبى فهو لم يتغير، وهو ألا أقترب من الأبرياء.
أطلق طاهر كلاماته باحتفاء . هذا لعب عيال. أنا لا أشك قط فى ذكائك، ياهيكل افندى ، لكن سامحنى أن أخبرك أنك تتسلي بينما الشعب واقع تحت قهر. لا يجب النضال بهذا الأسلوب. يجب أن ترد على العنف بالعنف. ولا يهمنى الابرياء.

رد هيكل: العنف لا يتناسب مع هذا العالم الهزلى - لأن هذا هو ما يبحث عنه الطغاة. نحن لا نأخذ الامر بعين الجد، لانرد على عنفهم بالعنف. ونكشف لهم اننا نعاملهم بجدية. نؤمن بعدالتهم وسلطتهم. ونساهم فى تعزيز مكانتهم، أما نحن فنساهم فى تعزيز خسارتهم.

- أنا لا أؤمن بهذا الاسلوب، وادعاءاتك لاتستند على قاعدة تاريخية. كل هذا ليس سوى قصصاً من الملهاة الماسخة.

- من الأساليب الأكثر سهولة أن تتبع الطغاة فى أرضهم. وتصبح هزليا أكثر منهم. الى حيث يذهبون أذهب أبعد منهم. وسوف ادفعهم أن يجربوا السخرية . كى احقق فرحتى الكبرى.

صاح طاهر: ولكن هناك الشعب المسكين. لقد نسيت الشعب الفقير إنه لا يضحك.

- علمه كيف يضحك ياطاهر افندى ؟ هذا سبب نبيل.
قال طاهر بصوت جاف: لا أعرف، أنا نفسي لم أتعلم الضحك. ولا أريد أن
أُتعمله.

أثار هذا الاعتراف الحزين. بدا الاعتراف أشبه بحب مستحيل وموالم. أحس
هيكل بانهايار سعادته. حقا إن طاهر يجهل الضحك، وليس عليه سوى أن ينظر
اليه كى يقتنع. لقد تعصب تماما لفكرة الكفاح المسلح مستهلكا وقته فى تدبير
المؤامرات، تتسلط عليه مأساة الشعب. يبدو مخلصا للأسى. إنه الموظف الأمثل
لثورة. لا يعير اهتماما لاي شىء خارج الدور الذى يؤديه ، ولا يؤمن بالنقد
القدرى، تحوطه أنانية مضاعفة، يطول انتظارها تتضاعف اعدادها فى مجموعات
، ثم تظهر من جديد وتكشف نفسها. قال هيكل:

- إذن، أخشى ألا تسخرون من الطغاة. يجب على كل واحد منكم أن
يضحك من الآخر.

- أى حدس هذا ياهيكل افندى. ألم تتناكب قط فكرة امكانية النضال ضد
الطغاة؟

- إنه طاغية ميت، طاغية يثير السخرية . ويثير المتعة.
عقد طاهر يديه ، وهو يتحرك فوق مقعده. كأنه فريسة لغمزات العار. إنه
واثق أن هيكل يستعمل لغة مجنونة كثيرة التناقض، بهدف أن يخذله. لقد جرؤ أن
يكلمه عن البهجة والمتعة. وهو الذى لم يعرف قط سوى آلام الجوع. لقد كشف
أخيرا عن وجهه الحقيقى، انسلخ خجل طاهر كاشفا عن الفكرة المريرة والغير
محتملة، التى دفعت كريم لامتنال لمكر هذا الرجل المقنع فى صورة داعية للسلم.
فكريم يملك قلبا كريما. هل تدنى الى حد أن يصبح شريكا لرجل مخادع؟ رمق
طاهر زميله القديم بنظرة زائغة، وكأنه يأمل منه المساعدة، فى الحقيقة لايمكن لاي
خيانة أن تفسد الأمر . لكن كريم لم يبد قط واعيا لموقفه المربك . راح يلتقط
أنفاسه، ارتسمت ابتسامة على شفتيه، نظر الى هيكل الذى بدت كل كلمة من
كلماته كأنها حكمة خارجة من فم خطيب. بدت التبعية شاملة، وأحس طاهر
بالحزن:

- لم تقل شيئا أيها الخائن.

استدار كريم نحو زميله، ملدوغا، خارجا من المتعة التي اغرقته فيها إجابة

هيكل. انفجر:

- ماذا يمكن أن أقول لك؟ أنا متفق في كل شيء مع هيكل. وما قاله يمكن

لطفل أن يفهمه. ولكن أنت أصم. أنت تحمل شركك الثوري كامرأة حامل فخورة

ببطنها. بشرقى. أنت تؤلمنى.

- هكذا تمارس الخيانة، نسب مانعبده ، الكلب أحسن منك.

تدخل هيكل: ياطاهر افندى. لاتظلم صديقى كريم. فربما أن لديه شيئا

آخر الآن. من حقه أن يتغير، لاتنس أن الافكار تتطور.

علق طاهر. ولكنه لا يفكر فى شيء بالمرّة، إنه متملق، وأنا اعرفه، يتصرف

كأنه يحب الشعب كى يحس بمتعة السخرية منه. لقد خدعه وخدعنى فى نفس

الوقت.

قال هيكل: لاتكن ظالما. فكريم لم يخدع أحدا. فهذا الامر يتطلب طموحا

كبيرا. وليس لكريم أى طموح. إنه فقط يحب الحياة.

- هذا مايزعمه. لو كنت مكانك لارتبت فيه. هل تعرف يا هيكل افندى أنه

اعترف لى أنه مستعد أن يفديك بحياته لو سألته ذلك؟ هذه مبالغة أليس كذلك؟ ومع

ذلك يبدو لى مخلصا. لقد كان كذلك عندما أراد أن يهب الثورة حياته.

صاح كريم: ليس نفس الشيء. أنت تخلط الأوراق أيها البائس. ليس حبنى

لهيكل بهدف سياسى. أنا لا أحبه كى أخلصه من ضغط عليه. فهو حر. ليس عليك

سوى أن تمارس حيك لشخص ينشر السعادة لمستقبل الشعب المسكين.

سأل طاهر وهو ينظر الى هيكل بطريقة ملتوية: أريد أن أعرف أى رجل

أنت كى تلهم المشاعر لمثل هذا القمىء؟

- أنا رجل بسيط ياطاهر أفندى. فقط أنقل آرائى للآخرين عن الشرف

والكرامة. انتظر شيئا آخر ممن هم على شاكلتى. صديقى كريم حر فى أن يغير

غدا طريقته فى التفكير. وأنا لا ألومه فى ذلك. لأنه مهمل فعلا، لن يصبح مثيرا

للمل وهذا شيء مهم.

- ماهو أهم شيء فى الانسان حسب رأيك؟

- الكمال الرائع الذى أحسه معه. وخاصة فى أكثر الأشياء بساطة فى الكون. هذه أشياء تفرحنى. وهكذا تعرفت على ثراء الحب المحبوس داخل الإنسان.

يا له من أسلوب بشع وكريه، فهذا الرجل مازال يكلمه عن البهجة، هل يؤمن بها حقا؟ ألا يوجد بالنسبة له شىء سواها فوق الأرض؟ هذه الأرض الخربة، التى أحرقها البشر ألف مرة، كيف يجدها مكانا للحب والسلام؟ يجب أن يكون وغدا كى يجامل هؤلاء المصابين بالهذيان ومهاويس السعادة. مع ذلك فإن «هيكل» ليس وغدا ولا مجنوننا. إنه يريد أن يسلى الشعب ويعلمه الضحك من الطغاة. من السهل أن تقول هذا. ولكن الشعب أمامه أشياء أخرى عليه أن يتعلمها. وجسامة مهمته تجعله مريضا بالأمل.

عامله هيكل برقة، فأحس بالسعادة فى أعماقه. ولم يكن هذا النموذج الثورى مصدر تفاهة. إنه بالتأكيد محل تقدير. هذه السترة البالية والياقة المنشأة ورابطة العنق المشدودة حتى طرفها. تعكس مواقفه تجاه بهجة مجتمع يريد أن يلحق به الضرر، إنه ثورى. لكن بكرامة، يرتدى نفس زى الخصم ومستعد أن يأخذ مكانه. أى نموذج رائع فى هذا العصر. أراد هيكل أن يتبناه. وأن يحتفظ به على مقربة منه. كنموذج للسخرية، ولكنه كان حلما مهووسا، فهو ليس ثريا بالقدر الكافى كى يشتري شيئا بهذه القيمة الغالية.

بدا له أن الصمت، وهذا المنظر الذى يحمله، يدفعان طاهر للتماسك. قال محطما الصمت.

- هذه الحقائق التى تتكلم عنها ياهيكل أفندى صادرة عن وغدا. هل توافق أن يكون الوغد مصدر بهجة؟

رد هيكل: الأوغاد هم من يقتلون البهجة حولهم، ويمكنهم أن يتصرفوا باستخفاف. إنهم يثيرون عصبيتى. لكنك لست من هذا النوع من البشر، يا طاهر أفندى. أنا أعرف كافة طبائع البشر. لماذا تحرص على الاحتفاظ بهذا القناع الذى يجعلك تعانى؟ أنا واثق أنك يمكن أن تغدو مازحا وتافها. وأحب أن أراك هكذا يوما.

ارتبكت أفكار طاهر، وأحس أن هذه الكلمات المعسولة تبدو مثيرة للربح
فهيكلك يعامله كرجل تافه . وهذه أكبر إهانة يمكن أن يوجهها لكبرياء مناضل .
أدار وجهه وكأنه يخفى شحوبه. أحس أن عليه أن يسرع لملاحقة العالم القلق الذى
ينتظره فى الخارج. على الأقل فهناك يمكنه أن يحس بالقهر. ولكنه لا يحس أبدا
بالتعاسة.

رفع هيكل كوب العصير الدافئ فوق المائدة المنخفضة أمامهما، وقال
موجهها كلامه إلى ضيفه:

- فى صحتك ياطاهر أفندى.

بدا طاهر وكأنه لم يفهم .. وبشكل ألى رفع كوبه. وأراد أن يضعه على
شفتيه. لكنه تردد لحظة. حطمه فجأة فوق الأرض، وقد بدا عليه الغيظ والغضب.
وكان هذه الحركة قد أعادت له كرامته.

انزعج كريم من تصرف زميله الغريب، التصق بمقعده يترقب رد فعل
هيكل، ولكن هذا ظل ساكنا، ثابتا إزاء استفزاز مضيفه وقد اصطبغ وجهه
بالحمره. بدا وكأنه يعامل طاهر بكافة أنواع الأدب.

دخل «سرى» الخادم الغرفة محدثا قرقعة نون أن ينبث بكلمة، وراح يحمل
بقايا الزجاج. لم يتكلم أحد. بدا الجميع كأنهم ينتظرون أن ينتهى من تنظيف
الأرض، وعندما خرج الخادم بعد قليل. قام طاهر ونظر إلى هيكل برهة. ثم هز
رأسه ويكل تتأقل اتجه نحو الباب.

غادر هيكل الأريكة وتبعه ، ولبضع ثوان وقفا مترددين عند عتبة الباب. ثم

قال هيكل:

- لم يكن هذا الشراب مسموما ياطاهر أفندى. إنه عربون الصداقة.

لم يرد طاهر . فجأة أمسكه هيكل من كتفه، وراح يضمه إلى صدره:

- أنت رجل شجاع يا أخى طاهر.، وخسارة أن تكون ضائعا.

سأل طاهر بصوت أشبه بصرخة مخنوقة. ضائع من أجل من؟

رد هيكل: من أجلى أنا وحدى. إذهب الآن، تصحبك السلامة .

ثم استدار وواجه كريم الذى كان ينظر إليه فى صمت رهيب.

راحت الصغيرة تأكل المثجات وهى تنظر إلى هيكل من «تحت لتحت». لا توجد أى معان خفية فى هذه النظرة، ولكنه حياء من أعلى الدرجات. بدت كأنها امرأة واعية تماما لفرجها، هزت ملفعتها طويلا وهى تتحرك بنوع من الشراهة الأثيرية. تصرف هيكل وكأنه لا يراها، فغريزة الإغراء تدفعه أن يخفى نقاط ضعفه حتى ولو مع طفلة صغيرة، تبدو فى الثامنة من العمر وتضع شريطا أخضر على شعرها المجدول بصفيرة واحدة، فوق ظهرها تبدو بالغة الجمال. ولكنه ليس هذا الجمال الكريه لأطفال أصحاب ياكون جيدا ويكره هيكل بشدة، إنها ناعمة الملامح، وتبدو بعض علامات الحزن فوق ظهرها فى عينيها مؤكدة أن هذا العالم يؤلمها. لذا حاول هيكل أن يهتم بها. هذه الكآبة الطفولية التى تكاد تصل إلى حد اليأس، كانت فى صحبة أمها، أقرب إلى النمرة الشرسة. يرسم الغباء على وجهها، رغم مكانتها الاجتماعية، وضعت حول ذراعها سواراً ثقيلاً من ذهب. عندما راحت تتكلم إلى ابنتها، أحس هيكل أنها تكاد تنكفئ على نفسها. وكأنها خجلة إنهم يشركونها مع هذه المخلوقة الجالسة أمامها. شكت الأم ظاهريا من هذه المنافسة، لأن نبرات صوتها كانت موصومة بحقد أبويها تجاه نريتها المتمردة، وكأنها تود أن تنتمى إلى جنس آخر غير جنس نويها، تمنى هيكل لو تموت هذه الأم أو تختفى فى الفضاء، يا للأوباش المرعبين، إنه يعانى من أجل الصغيرة بسبب نظرتها المثيرة، لذا بدأ يتطلع إليها.

كان هناك القليل من الزبائن فى صالة الشاى التى تقع بأحد أحياء المدينة الراقية، إنه على موعد مع سعاد، وفضلا عن الصغيرة وأمها، لم يكن هناك سوى

مائدتين مشغولتين بنساء يتناولن الكعك ويتكلمن بصوت خفيض. بدا هيكل مغموما لشراهة المرأتين، ثم تابع حواراه المدهش مع الصغيرة. أحس هيكل أنه مشغول بهما، أراد أن يعرف شيئا عن هذا الخيال الطفولي، ماذا عليه أن يفترض فى الأمر؟ أحس أنه اكتفى بإخفاء قلقه ، فغير أسلوبه، وراح يحرق فيها بشدة، أخفضت الفتاة عينيها، وقد احمر خذاها. ملأ هذا الروغان «هيكل» بالراحة، وأصابه الأنين بفكرة مجنونة اعتملت فيه. أن يمك الفتاة من يدها، ويذهب بها تحت بصر أمها الخائفة، وهو واثق أنها سوف تتبعه.

نظرت إليه الصغيرة هذه المرة بعينين حزينتين وكأنها سوف تسكب الدمع. وقد شككت فى قدرته على إنقاذها، وأن ينتزعها من أمها المتوحشة؟ بدا لهيكل أنها تنتظر منه بادرة أن يقوم ويتبعه. ولكنه أدرك أنه يهذى، لم يتمكن قط أن يرضى هذه الرغبة الجامحة التى تستبد به فى كل مرة يرى طفلا فى صحبة أبوين غير جديرين به. ابتسم للفتاة وكأنه يعلن أسفه. شئ غريب، يبدو أنها فهمت، فقد هزت رأسها فجأة برقة. وأحس هيكل بقلبه يغوص فى صدره. فأغلق عينيه كى يفلت من هذه الرائعة المغموسة بالبراءة.

وقفت سعاد فجأة أمامه. لم يعرفها هيكل لتوه . فهناك تغيير واضح عليها. كانت تضع شعرا مستعارا فوق رأسها. وقد سودت عينيها بالكحل. بدت شفثاها شاحبتين، إنها تتصرف كامرأة. وقد اكتست ملامحها بجمود غير متوقع. إنه تنكر حقيقى. لاحظ هيكل تفاصيل أخرى أكثر دهشة من كل هذه «المسكرة» ، فالفتاة قد وضعت قرطا فى أذنها من الحجارة الكريمة الكبيرة. غالية الثمن. لم يعلق بكلمة . لأن ذلك بلا شك ماكان ينتظره .

جلست أمامه، وللحظة، تصرفت بكل سخرية، كشخص يضع قناعا ويقوم بحركات إيماثية من أجل التعرف عليه. احتفظ هيكل بمظهره البارد. بدا كأنه لم ينتبه إلى هذه التغيرات، صدمت بهذا الفضول الضائع، ونظرت حولها على أمل أن تعجب الحاضرين، ولكن قلة الزبائن خيبت أملها، وعادت نظرتها إلى الشاب ولم تتردد كثيرا فى أن تسأله:

- كيف تجدني؟

قال هيكل: رائعة. أنت تذكرينني بجديتي.

بدأت الفتاة الصغيرة مستاعة مصدومة. ولكن هذا لم يتفق مع نمط جمالها الجديد. لقد فهمت لتوها النظرة الباردة التي ألقاها هيكل عليها؛ فقد تجاوزت برغبتها كافة الحدود التي تفصلها عن الطقولة للأبد، إنها الآن امرأة. تعرف أن ذلك تجاوز كل رياء ونفاق بنى جنسها.

كفت فجأة عن الاستياء، وقالت بلهجة امرأة أنضج من سنها:

- يجب أن تكون لطيفا معي لأنني جئت لك بخبر مدهش.

- أحكى، فأنا أسمعك.

- حسن. لقد حدث اليوم أن جاء المحافظ لرؤية أبي. احتدمت بينهما مشاجرة حامية، سمعت كل شيء فالمحافظ لا يريد أن يصدق أن أبي لا علاقة له بموضوع التمثال. واعتبره مسئولا عن موقفه.

قال هيكل: من الحق أن يغضب هذا الرجل، لعله كان يؤنبه.

- والسبب عظيم أنت لم تعرفه .. فالمحافظ لن يستمر أكثر من أسبوع. لقد

أجبره الوزير أن يقدم استقالته. هل أنت مبسوط؟

راح هيكل يفكر في الخبر. فوجيء أنه لم يشعر بأية فرحة عارمة. أحس أن فراغا سيتولد لديه باختفاء المحافظ، وكأنهم قد نزعوا عنه لعبته التي يعرف وحده كيف يديرها ويتمتع باستخدامها. فقد كان المحافظ بالنسبة له طيلة الوقت مصدرا لاينتضب من السعادة فوق هذه الأرض. يا الله. سوف يخسر النبع الذي يغذى روحه الانتقادية، خشى هيكل أن يحل مكانه موظف تافه، طاغية. قصير الأمد. ليست لديه خيالات مريضة كسابقه. لأن قدر الطغاة يثير عصبية أكبر من جرائمهم. ماذا يمكن أن يفعل في زمن تافه يسوده الملل؟ استبد الحزن بهيكل لأن عليه أن يعتمد على المصادفة فيما يتعلق بالمستقبل.

نظرت إليه سعاد بعينين زائفتين كانت تنتظر بركانا من السعادة. لم تفهم

صمته:

- لم تقل شيئاً .

- إنه خبر ممتاز، معذرة. أنت تستحقين مكافأة.

وأمسك يدها من أسفل المائدة وقبلها بركة، وهنا رأى فى أصبعها خاتماً من الياقوت النقى. حجر كريم مذهش. سقطت عليه عيناه وكأنه إشراقة مفاجئة فى الظلمات. لم يبد أية دهشة. وضع يد الفتاة فوق المائدة. بدا الخاتم شيئاً حياً تأملته سعاد بنظرة مرعبة. قالت نون أن تبعد عينيها عن الحجر اللامع:

- ألسنت مندهشا لرؤيتى بهذا الخاتم؟

- لماذا اندهش؟

- أه. أعرف لا شيء يدهشك. فأنت قليل الاهتمام بى. لذا فأنا بالغة

التعاسة

- انت تعيسة. مع كل هذه الجواهر.

- لم أخبرك بكل شيء فى مسألة المحافظ. فأنا الضحية.

- كيف هذا؟

- حسن، لقد ارتاب أبى فى أمرى فيما يتعلق بالشيك. لقد ألمح بذلك فى الصحيفة التى أرسلته لها. ولم يكاشفنى مباشرة. ومع ذلك لم يكف عن التلميح بنوياً إزائه.

- هل يجعلك هذا تعيسة؟

- لا. ولكنه الآن يريد أن يتخلص منى. لا يريد أن يرانى ألف حوله، ويصر

أن يزوجنى، ألا ترى أنه عقاب شديد؟

- لكن ، ماذا تفعل المجوهرات فى ذلك؟

- لقد فهمت، فأنا لن أتركه يفعل. أجبته إننى لا أريد الزواج فهذا يورطنى

فى المزيد من المتاعب. وكى يفرينى، أعطانى مجوهرات المرحومة أمى. التى يحتفظ لى بها فى خزينته حتى أكبر. ولكنه قرر ابتداء من الآن، إننى يجب أن أتصرف كامرأة فى سن الزواج. يريد أن يكون صهره القادم أهلاً لكل الثروة التى أحملها.

- إنه على حق، فهو يعرف نوع الرجال الذين يناسبونه. يمكنك أن تنامي
قريرة العين. فسرعان ما ستجدين زوجا.

- إذن، فأنت لن تغضب منى.

- لا تصرفى كضحية، ستكونين سعيدة فى زواجك.

- لا أستطيع أن أفعل شيئا آخر. طالما أنك لم تطلب ذلك منى.

قال هيكل بشكل قاطع: أنا لا أحب المجوهرات.

وهكذا انتهت علاقة غرامية. نهاية أكثر سخرية من المتوقع. فهيكلم لم يأمل
فى شيء، ولم يشعر بأى يقين إنها ليست سوى بضعة مجوهرات. لقد اختفت
العاشقة الصغيرة، لم تبق سوى امرأة صاحبة حظوة وثروة. إنه لم يعتمد على
ممتلكاته المادية. كفت فجأة عن التسلية كى تعود إلى عالمها العفن، لاتستطيع أن
تنغمس سوى فى الخداع. فالخداع أساس حياتها. وهى واعية له. لقد استخدمت
أفضل مواهبها. كى تروى عطشها من الغرور والانتصارات السهلة على الرجال.

أراد هيكل أن يسكب بعض الدموع على تلك المخلوقة المذلة-التي اختفت
من حياته. ولكن عينيه جامدتين. بدا ألمه نوعا من الطيبة والتخفف. انتابه
الإحساس بأنه يولد من جديد. حرا، ملاء شعور باليقين، نظر نحو الفتاة الصغيرة
التي تكره أمها فوجد وجهها وقد امتلأ بانتعاش برىء كاد أن يفقده. انتهت من
التهام المثجات، واتكأت على المائدة. وضعت يدها فوق خدها بشكل عبوس، أحس
هيكل أنها مستاءة منه فابتسم لغيرتها. تمتمت سعاد:

- كيف أتصرف. كيف أستطيع ببساطة أن أتكلم مع رجل آخر، لقد
عرفتك. ليس فقط لأننى أحبك. بل لأننى سوف أصاب بملل حتى الموت، أنا التي
يستهيها الناس.

كان يعرف أن هذا ليس حقيقة ، وأنها سرعان ما تتقبل بشاعة العالم الذى
تعيش فيه . هذه البشاعة لاتبهره كثيرا . اختفت وراء بريق الجنس الثالث
والأقنعة. ورغم كل المحيطين بها الذين تبدو صحبتهم رائعة . فإنها لم تجد سوى
الرب خلف هذه الوجوه المبتسمة المشنوهة بجمالها . كان يعرف خطر الغرور

على المرأة . إنها تصاب بالملل عندما يكف الإعجاب من حولها . لكن سعاد جميلة بما فيه الكفاية ولن تصاب قط بالملل .

لكن فيم الخداع ؟ لقد نفذت دورها بمهارة وحذق . كما أعجزته كنوز جسدها اللدن بشكل يستأهل الاحترام . وعليه ان يتبعها فى وساوسها ومخاوفها . فهو ليس ناكراً للجميل . إنها فى حاجة لبعض من رفته . قال .

- علمتك أن تتمتعى من كل شئ فى العالم . اذن لا تخشى شيئاً . ولن تصابى بالملل .

سألت : هل تفكر فى ؟ - ثم وبحركة تلميحية - : ولكن ليس بطريقتك الساخرة ؟ فأنا أعرفك .

- سأفكر فيك بكثير من الجدية . وأعدك بذلك .

وظلا لحظة صامتين . ثم فتحت سعاد حقيبتها وراحت تعدل مكياجها ، بدا هيكل مبهورا بالطريقة الذى تسلكها وهى تقوم بهذه اللمسات . إنها المرة الأولى التى يرى فيها الفتاة تهتم بمثل هذه الحركة البذيئة . تضع أحمر شفاه فوق شفيتها الفاغرتين . بدت فخورة بأنها أصبحت فى مصاف النساء .

انتاب هيكل ضيقا وبعض الغيظ لرؤية هذا التلطيح الذى يدنس الصورة التى أراد أن يحتفظ بها للفتاة . أدار رأسه منتظرا أن تنتهى من عملها الفاحش . وعندما استعدت . قام . وخرجا من صالة الشاي ثم افترقا فى الشارع .

أتى الشارع لهيكل بمشاعر جديدة . كان يئن وهو يتنفس بصعوبة ، فهو حساس للوعود المتراكمة فى طريقه . هناك وجوه أخرى . ومشاعر أخرى تنتظره ، فكر أن جبه الفقيد قد اتسم بنقاء غريزى . هكذا دائما تنتهى كل مغامرة . لقد جرب شعورا غريبا من السعادة . وكأنه ترك للمرأة التى انفصل عنها جزءاً من مشاعره . أما الجزء الباقي فعليه أن يصوغ فى العالم كله .

ذكره زحام الشارع ان أحدا من بين ذلك الحشد الذى يقابله لا يشك فى وجود شء مهم يعرفه هو وحده . فسوف يقدم المحافظ استقالته قريبا . أحس هيكل بفتة أن هذا شئ يثير السعادة التى يدخرها لأصدقائه . أسرع الخطى

وراح يبحث عن بائع الياسمين الذى يتجول عادة فى هذه الدروب . رآه واقفا فى ركن من الباب ، أشعث الشعر وبداى الحزن رغم الزهرة الحمراء التى يضعها فوق أذنه . اقترب منه واشترى باقة رقيقة من الياسمين دسها فى جيب سترته الداخلى . ثم أوقف عربة . وأعطى الحوذى عنوان عرفى .

كان جالسا فوق قمطره . فى صالة الفصل الخاوية . راح عرفى يركز انتباهه فى الكتاب الذى يقرؤه . كان ضوء النهار يتسرب من الأدوار الأرضية . ولكنه ضوء باهت شاحب كائنه الزنزانة . ترك عرفى قراءته ورفع نظارته ودعك عينيه بانزعاج . امتلأت رأسه بأفكار مريرة . تتعلق بموضوع أمه التى تسبب له حرق الدم . كان يشك فى القرار الذى اتخذه . فأحد أصدقائه الأطباء نصحه أن يضع العجوز فى مصحة للعناية بها بأحدث الأساليب . هناك أمل ضعيف أن تتحسن صحتها . ولكن هذا الأمل الضعيف لا يساوى بكاءها وهى تذهب بعيدة عنه فالمكان بعيد عن المدينة ولايمكنه أن يراها إلا لماما . رفض عرفى هذا الحل تماما . فليديه الإحساس أن ترك أمه لرعاية غرباء سوف يجعلها تنساه وستضيع ذكرياتها فى حنايا ذاكرتها المريضة، اختنق قلبه، إنها الطريقة الوحيدة لإنقاذها من هذا العالم البشع . لكنها الشعاع الذى يلمع بالسعادة منذ طفولته . راح يحبس الدموع التى ترقرقت فى عينيه . وأعاد نظارته . وعندما تأهل للقراءة ، لاحظ أن الضوء قد انخفض أكثر . وأنه لم يعد يرى شيئا .

أربكه ظهور هيكل فى الفصل مثل ظهور عدو خارج من الظلمات كى يكسر جليده الداخلى ، كان هيكل آخر رجل يرغب رؤيته فى هذه اللحظة . لأن تكتم وساوسه وحالته المزاجية وضعفه سوف يضطره أن يتصرف بطريقة غير متوقعة مع المتاعب التى يثيرها . إنه فى حاجة للهدوء والوحدة . راح يسيطر على شعور التمرد الذى يتولد فيه ضد تطفله . ونزل من قمطره لمقابلته وهو يقول :

– أهلا وسهلا .

رد هيكل : أهلا . اعتذر لإزعاجك . لكن كان يجب أن أراك .

ارتبك عرفى وهو يقول : أنت لاتزعجنى قط . أنا أقرأ . لكننى لاحظت أن

المكان مظلم جدا . انتظر ، سأبحث عن مصباح .

اعترض هيكل . لا لا ، إنه أفضل هكذا ، لسنا فى حاجة لمصباح .

لم يلح عرفت ، لأن رغبة ضيفه قد تقابلت معه فى البقاء فى الظلام ، فهو يخشى أنه تحت نظرة هيكل الحادة يمكن أن يكشف معاناته . إنه لا يريد أن يتكلم عن أمه . ولا عن المأزق المرعب الذى يرتطم به . إنه أمر يخصه . أمر يتعلق بمصيره . ارتبك أن المه يزيد على أيدى زنديقه ، أدرك أنه لن يهرب بعيدا . عندما شم رائحة الياسمين تفوح من الشاب . إنه يعرف أساليب هيكل . فلهذا سيخرج الباقة الموجودة فى داخل سترته ، ستخرج فى اللحظة المناسبة ليقدما لأمه التى ينوى أن يزورها فى حجرتها . هذا اللقاء بين هيكل وأمّه يثير عرفت فى جانبه الغريب ، المثير للذهيان . فهذا يتجاوز قدرته على المقاومة العصبية . تأوه . قال وهو يشير إلى أحد المقاعد لهيكل . ثم وهو يجلس أمامه فى الناحية الأخرى من المقاعد : أجلس ، أتمنى ألا يكون أمر مزعج قد جاء بك .

- بل على العكس . يمكنك أن تفرح يا أخى عرفت ، فالمحافظ ، سيتغير .

- هل نُشر هذا فى الصحف ؟

- الصحف لم تعرف بعد . الخبر جاء نى من مصدر أكيد ، وعليك أن

تصدق .

- ماذا حدث ؟

- الأمر بسيط . مثلما فهمت . فالوزير طلب الاستقالة من المحافظ وسوف

نتخلص منه خلال أسبوع .

لم تكن لدى عرفت أية رغبة فى الفرغ . فماذا يهمه من تغيير المحافظ . لم

يجد شيئا يقوله يعبر به عن فرحته ولا عن رضاه . فكل شيء فى داخله ساكن قائم

على نفس المعاناة . ومع ذلك عليه ألا يخيب أمل هيكل بصمت طويل . هتف بصوت

امتزج بالمرارة رغما عنه :

- هذا يرضى رغبتك؟ أليس كذلك ؟

بدا له الأخر لم يسمعه، لأن الرد لم يصل إلى هذا الوجه الساكن الذى يتلاشى ببطء . تغشاه الظلمة . وراح يميز أكثر فأكثر ملامح هيكل . وهو الغارق فى متاعب جمّة . انتابته فكرة أن يسمعه ينفجر فى الضحك فجأة . أبلغه حدسه أن هيكل ليس فى حالة عادية . مر بداخله شيء ما غير محدد ، وشديد القلق . استند عرفى على المقاعد ، وأرهف أذنه وكأنه يستعد لسماع رسالة هامسة، رد هيكل .

- بكلمة واحدة . نعم .

- ماذا تعنى ؟

- أعنى يا عزيزى عرفى . أن المستقبل يخبئ لنا مفاجآت . ويجب ألا ننسى أن هناك محافظين تافهين . إيمانهم بالطغيان الماسخ يقدم لنا مادة شهية . قال عرفى وقد تحير قليلا من التفسير الغريب لهيكل : أكيد . اعتقد أننا يجب أن نمثل للفرصة المهيأة لنا . أمامنا مساحة زمنية واسعة فى هذا المجال . وليس لدينا ما نخشاه .

- أنا لا أخشى . ولكن لىّ الإحساس أن المحافظ القادم سيصاب بملل قاتل . ربما سيتصرف كأنه قد نسى غباءات سابقة . أو كرجل يريد أن تكون له قيمة ، وهنا علينا أن ننقى أنفسنا .

بذل عرفى مجهودا خارقا كى يهتم بقلق هيكل حول موضوع المحافظ الجديد . إنه الآن يتساءل هل يضمن هيكل قلقه . وعن أى منفى يريد أن يتكلم ؟ ولماذا يشمله فى رغبته للرحيل نحو بقعة أخرى أكثر خصوبة فى العبث . إن عرفى ليس فى حاجة للذهاب للبحث عن الخسة والنذالة . فهى مزدهرة فى هذه الأرض وتنتشر أسبابها فى كل مكان . يمكنه أن يبتهج فى منزله . حلق فى وجه صديقه المتلف ، وحاول أن يدرك هذه الغيرة الخارجة عن المؤلف . لم ير سوى الابتسامة الخفيفة التى تبدو كأنها تسبح فى الظلام الذى اشتدت كثافته، أحس أنه مادة لسخرية هذا الرجل الذى لا يعرف الرحمة .

تلاشت الابتسامة فجأة . وسمع هيكل يسأله :

- كيف حال أمك ؟ لم أرها منذ فترة طويلة .

- إنها دائما فى نفس الحال .

- ألا تتمنى لها أن تتحسن ؟

أثار السؤال عرفى ومدته بقوة روحية، إنه واثق أن هيكلم لم يسأله إلا ليتأكد منه . فهيكلم يود أن تستقر كافة التغيرات المتعلقة بصحة المرأة العجوز . احتفظ بأمله أن يراها دائما فى نفس الحال ، مصابة بجنونها الخاص .

أستبدت بعرفى رغبة أن يوقعه فى فخ . لعله يكشف أسبب هذا الاهتمام الزائد عن الحد ، قال : نصحونى أن أرسلها إلى مصحة . لكنلى متردد .
- أفهم سبب ترددك .

- ولكن، ربما سأنتهى إلى حل .

صاح هيكلم بحماس يدركه عرفى فى أية لحظة : لاتفعل هذا قط . لاتفترقا أبدا يا أخى عرفى . ماذا يمكن أن تنتظر من هؤلاء الناس ؟ أنت هكذا كأنك تسلمها لجلاد .

- إنها فى حاجة للرعاية ولا أستطيع أن أديرها لك . وهم يستخدمون فى هذه المصحة أساليب علاج جديدة . قيل لى إن هناك أمل فى الشفاء .

- أنت طفل . لو كانوا قادرين أن يعينوا لها عقلها، فلماذا لا يطبقون أساليبهم على كل البشر . لا . لايمكن أية قوة إن تنزع الإنسان من شره . لاتجعلها هدفا لتجاربيهم القدرة . فسوف تتعذب .

- ألا تعتقد أنها تتعذب ؟

- إذا أردت أن تعرف ، فهى ليست لديها أية فكرة عن المعاناة ، نحن فقط الذين نراها تتعذب .

- كيف . أنت ، يا هيكلم . هل تتعذب ؟

مد هيكلم يده، ولس ذراع الناظر بشىء من التوسل :

- لاتتركها لهؤلاء الأوغاد . فهذا عمل وحشى .

سكت وأدار رأسه ، كيف يمكنه أن يتركها فى ضعفها . مرت لحظة من

الآلم ، والخوف ألا يرى العجوز المجنونة ، وأن يفقدنا للأبد . ندم على كلماته ، ومشاعره التي أبداها . كيف سيفكر عرفى فيه ؟ تكهن الناظر الذى بوغت ، وهو ينتظر . بينما راحت نظرتة تحوم فى الظلام الكثيف الذى يسيطر الآن على الفصل. لم يميز سوى الحروف الهجائية المكتوبة بالطباشير فوق السبورة ، تبدو أشبه بحروف هيروغليفية لامعة . وببطء ، وكأنه يمثل لحدسه الباطنى . قام وأخترق صف المقاعد وصعد المنصة ثم جلس على قمطر الناظر البعيد ، وفى أسفله رأى عرفى ، مهموماً ، مكتوماً ، يلفه الظلام . بدا له أن آلاف السنين قد مرت منذ أن باح له بسره . وأنه يمكن الآن أن ينظر للأمام بعد أن فهم .

تخففت الدهشة التى استبدت بعرفى قليلاً واستعاد ثقته فى نفسه . وأراد أن يصرخ فى هيكل معبراً عن فرحته لأنه قريب منه فى بأسه ، ذلك الآلم الشديد الذى قتل فيه شيئاً ما للأبد . يعرف أن «هيكل» متأهب للخطر الذى يمزق روحه . ابتعد عنه والتصق بالحائط فى كبرياء . فماذا فعل وهو جالس فوق القمطر، مخلوق ضائع وحيد فوق صخرة ؟ لماذا لا يقترب منه . يمد له يده فى عناق أخوى حاول أن يتكلم، لكن الكلمات انحسرت فى حلقة ، وسمع صوت هيكل يدوى فى الصمت:

– هل يمكن أن أراها ؟

قال عرفى : ستكون سعيدة . تعال .

لحق به هيكل . خرج الاثنان من الفصل ، وسلكا الممر الذى يؤدي إلى غرفة العجوز المجنونة .

كان باب الغرفة مفتوحاً . ينساب منها ضوء خافت . توقف عرفى عند العتبة ، قلقاً ألا يكتشف أمه . لم يرها فى أى مكان بالرفة . إنها نوع من الزنزانة ذات نافذة مسدودة بالواح الخشب . من أجل وقاية المجنونة من نظرات الجيران المختلثة . تضم سريراً حديدياً صغيراً ، وكومودينو وأريكة مغطاة بقماش من الجوت . وفوق الأرض قطعة من الحصير . ومصباح غاز فوق الكومودينو ، يشع ضوءه . هتف عرفى :

- أمآه ؟

لم يسمع ردا . ولكن عرفى أحس بشيء ما يتحرك فى الركن ، بين السرير والحائط . اقترب يتبعه هيكل . كانت العجوز المجنونة جالسة القرفصاء ، انهمكت فى ترقيع خيشة موضوعة فوق ركبتيها . لم تبد أية بادرة دهشة لوجودهما . لكن عينها لمعتا لرؤية هيكل ، ثم راحت تحرك وجهها . وقالت :

- انتظرك يا أمير . بالأمس حلمت بك . فوق حصانك الابيض تصرع التنين المرعب . ولكن التنين كان يولد من جديد بعد كل ضربة ولايموت أبدا . ولكنك ، يا أمير ، كنت تضحك و تضحك ... وأعرف لماذا كنت تضحك . فانت لم تود قتل التنين . لأنه يسليك ولاتبغى موته .

قال عرفى : أمآه . قومى . واستريحى على سريرك .

لم تتحرك ، وقف هيكل أمامها ومد لها يده ليساعدها على الوقوف . طبقت يدها وابدت احتجاجا كفتاة رشيقة مليئة بالكبرياء . بدت نحافتها الشديدة تحت ثوبها القطنى وجعلها خفيفة كالريشة . ثم راحت ترتب الخيوط البيضاء فى شعرها وهى تدندن . تمددت فوق السرير . وفى ذبول كأنها محظية تنتظر عشاقها وتعرض عليهم اغراءها الساذج .

هنا سحب هيكل باقة الياسمين من جيبه الداخلى وقدمه لها . ابتهجت ورفعتها إلى أنفها . تنسمت عطر الزهور كامرأة اعتادت هذا النوع من السلوك قالت مدندنة .

- يا أمير . أنت تخرجنى كثيرا . أنت تدمر نفسك من أجل امرأة عجوز مثلى .

رد هيكل: ليس هذا سوى شيء صغير ، قياسا للسعادة التى تهبيننى إياها .

- سعادة ، أنا ؟ يا أمير ، أنت تسخر من شيخوختى ؟

- تعرفين إننى لا أجرؤ قط .

- ومع ذلك أعرف أنك رجل ساخر .

- ربما بعيدا عنك . لكن هنا قلبى مفعم بالحزن .

- قلبك كبير يا أمير . إنه فى حاجة إلى غابات شاسعة . ماذا يمكنك أن تجد فى هذا الكوخ الفقير . لكن فى الخارج هناك روائح ؟ لماذا تضع وقتك هنا؟ .

وحركة باقة الياسمين كأنها مروحة . أحسست أن عطرها يفوح فى الغرفة قرفص هيكل عند طرف السرير . بدا كأنه تجاهل وجود عرقى نظر إلى العجوز المجنون بيهجة بادية ، وقال :

- لا يوجد شىء فى الخارج يمكنك أن تتدمى عليه . صدقينى .

أغلقت عينيها ثم غرقت فى تأمل شديد . ألقى رأسها على الوسادة ، وضمت باقة الياسمين بقوة على خياشيمها ، وكأنها تتنفس منها عطر العالم الخارجى ، عالم الأحياء الذى حاولت أن تتذكره .

راح عرقى يقاوم أحاسيسه وهو واقف خلف هيكل . فوق كتفى الشاب رأى أمه متمددة فوق السرير كالموتى . لم يجرؤ أن يتدخل فيما بدا له هبة من السماء . لقد حقق هيكل معجزة حين أدار مثل هذا الحديث مع أمه ؟ إنه يكلمها بطريقة طبيعية ، وكأنه يتكلم إلى كائن عاقل . والعجوز ترد بنفس النغمة وكأن مخها المضروب قد بدأ فى العمل بشكل طبيعى ، هنا تسأل عرقى عما إذا كانت أمه مجنونة حقيقة أو أنها تمثل مسرحية ، سرعان ما ألقى فكرته هذه . فالمهم بالنسبة له الآن ، هو أن تخرج أمه من ليلها وتعود إلى نبلها وبهجتها .

فتحت العجوز عينيها ، وأخضت باقة الياسمين . وسألت وفى صوتها نبرة

قلق :

- كيف حال البشر الآن يا أمير ؟ أذكر أنهم كانوا أشرار .

بدت وكأنها تستعلم عن بلد غريب زارته فى شبابها . ولم تعد إليه قط ، رد

هيكل :

- إنهم هكذا دائما . ولكن غيابهم لا يزال ممتعا .

- أنت لاتحمل أحقاد فى قلبك . شاهدتك فى حلمى تلك الليلة . لم أر أى

بادرة سوء نية فى عينيك وأنت تحارب التنين ، مع ذلك أراد أن يتخلص منك يا أمير

، فانتبه إلى نفسك .

- لن اجعله يتخلص منى . فلست ممن يتم التخلص منهم . سأدافع عن
نفسى بلا هوادة . لاتقلق علىّ .

طبقت يديها ، ووضعتهما على شفقتها كأنها عاشقة متميمة ترى حبيبها
يرحل إلى حرب شرسة .

- أجل ، دافع عن نفسك . وعد لى منتصرا .

تأملها هيكل متأثرا ، متوغلا بكل وجوده فيما وراء هذا الوجه النحيل
الرقيق ، الخالى من تجاعيد الشيخوخة . لم ير وجهها يمثل هذا الصفاء . وهذه
المساحة الخاوية من أى دناءة حتى وجه الطفلة الصغيرة فى صالة الشاي . بدا له
الآن مطبوعا بعلامات فاحشة ، حيث امتزجت نظراتها بالخداع والترقب كأنها
تقوم باغراء خصم غادر . مستخدمة سلاح الأنوثة . لاشئ يقارن بالسلام فى تلك
اللحظة . إنه شخص مخلص من كافة تملقات البشر الثقيلة . لايمكنه أن يحس
بالسلام مع هذا العالم إلا أمام هذه المجنونة التى نست متاعب الغرور . وأصبحت
بالنسبة له مجرد مخلوق آدمى بلا مرارة ولا طموحات .

لاحظ أن المرأة العجوز تنظر له بسعادة . وكأنها ترتاب فى السلام الرائع
الذى يسكنها :

- نحن متفاهمان . أليس كذلك يا أمير ؟

قال هيكل : طبعا . ولكن يجب ألا تخبرى أحد بسرنا .

هنا تركت السرير ، ثم بدأت فى القفز والدوران فى المساحة الضيقة بين
السرير والكمودينو . راح طرف فستانها يتسع حول جسدها الضامر . وظهر
ساقاها العجافوان المليئتان ببقع سمراء، راحت تعيد ترتيل اغنية كئيبة . لكنها
مليئة بالخصوبة والشباب ، بصوت فتاة مبتهجة تلعب فى حديقة طفولتها .

لم يبد هيكل أى حركة كى يوقف من رقصها المفاجئ . أحس بالسعادة
وهو ينظر إليها برقة، وكأن المنظر يشكل جمالا فريدا لشيء غير مألوف .

شحب عرفى ، وللحظة قصيرة ، ود أن يوقفها ، وأن يفسد هذه الرقصة

المرتعشة التي تعيد أمه إلى جنونها . ولكن شيئاً ما إعتمل فيه إزاء موقف هيكل . فهم فجأة إن إعتياد الجنون لايسبب أى رعب . فمن السهل أن يعيش مع أمه أفضل من أى شخص عاقل . فالجنون لا يضيف شيئاً . بدت له الفكرة كأنها خلاص . فراح يبتسم لأمه .

توقفت المرأة فجأة عن دورانها وعادت لتستريح فى سريرها ، لاهثة . وقد تجمدت ملامح وجهها من المتعة . قالت موجهة كلامها لابنها .

- يا صغير . اشتر لى رداءً جديدا . فردائى قديم . وأريد أن أكون جاهزة فى المرة القادمة عندما يأتى الأمير لزيارتى . إنه يقدم لى الزهور . وأنا استقبله كشحاذة . يجب أن يرانى جميلة .

فتشتت عن باقة الياسمين، قبضت عليها بيديها . ثم سقطت رأسها على الوسادة وبدأت كأنها تغرق فى نوم فاتر .

تأملها الرجلان لحظة ، ثم خرجا فى صمت من الحجرة .

لم يجرؤ عرفى أن يقول شيئاً . فهو لم يشعر بمثل هذه السعادة من قبل وبدا له أن عبثاً ثقيلاً قد نزل من فوق كتفيه . فأصبح حرا طليقاً . ولم يعد مقوس الظهر . رفع رأسه كى ينظر إلى هيكل الذى بلغ باب الشارع .

ضما أيديهما قبل أن يفترقا عند باب «البدروم» وفى الشارع الخالى الضعيف الإضاءة قال هيكل :

- أنت تملك بضاعة ثمينة . لا تتركها قط للأوغاد .

رد عرفى : لاتقلق ، الآن فهمت . واعذرنى يا أخى هيكل اننى ظلت لا اقمهم وقتاً طويلا .

وأبتعد هيكل . ثم استدار بعد خطوات ورأى عرفى واقفا عند مدخل «البدروم» ، راح يحييه بإشارة أخيرة من يده . تحية مليئة بالمودة والشموخ . وكأنه سلطان راحل إلى منفاه . بعيدا عن أملاكه الغالية .

(١٢)

لم تكن سوى سحابة عابرة فوق المدينة ، اختفت الشمس تماما وكأن عاصفة ما قد هبت. صنعت الطائرة الورقية بقعة صفراء فى أعماق السماء الداكنة تتأرجح وتدفعها زوابع الرياح التى تهب من البحر . راح ذيلها الطويل يتمايل ويتراقص كثنعبان يخرج من بطن السحب ، مشنوه بالفراغ . امسك كريم الخيط بيد ثابتة ، وراح يتحرك فوق السطح من ركن لآخر . محركا الطائرة الورقية ، وهى ترتفع أكثر فأكثر . إنها جديدة . كبيرة الحجم ويجربها بكل متعة ووحشية . صنعها من أجل «قمر» العاهرة الصغيرة ، التى عادت البارحة . التقاها وهو عائد لمنزله ، جالسة تنتظره على السلم . اعتذرت لأنها أزعجتة ، ولكن كريم رفعها بين ذراعيه وحملها إلى حجرته . ومارس الحب معها طيلة الليل . وعندما استيقظ نون أن يقدم لها شيئا . ترى ماذا ؟ ليس معه مال أو شئ ثمين يمكن أن يعبر به عن مشاعره المجانية التى يحسها نحوها . فكر فى صناعة طائرة ورقية . طائرة ورقية لا يبيعهها . إنها عمل فنى راق . اختار أنواته بعناية . وكأنه سوف يبني قصرا لامرأة أحلامه .

الآن ، ينتظر أن تبلغ الطائرة هدفها ، هاهى ثابتة فى السماء ، نادى الفتاة التى جاءت تتأملها . بدا فخورا بهذا النجاح الطيب الذى حققه بالطائرة ، فالفتاة سوف تعجب بعمله . أليست هذه الهدية رائعة كى يقدمها لها ؟ طائرة جميلة تطير أثناء العواصف الشديدة فى السماء وكأنها عاشقة تتأوه ؟ ابتسم خفيفا لشاعريته . وراح يوجه الطائرة الثقيلة بحذر عبر مطبات الهواء خاشيا أن يصيبها ضرر . فعند أقل بادرة من عدم تركيزه يمكن لهديته الجميلة ان تتحول

إلى قطع . احس للحظة عابرة بضيق . ثم تنفس الصعداء . لقد وصل إلى هدفه ،
وهاهى الطائرة الورقية متوازنة فى أعلى السماء . وحيدة . أحس بها كريم تهتز
فى طرف الخيط . توقف ، وهو يلهث ، وقد امتلأ جذعه العارى بالعرق . واستند
على جدار السطح للحظة طويلة ، وهو يتأمل صنيعته بكبرياء شديد .
- الحمد لله . أرى أنك تتسلى جيدا .

ارتبك كريم ، تأرجحت الطائرة بعيدا فى خفة ، يجب أن يسحبها على
الخيط ليوجهها . عرف صوته دون أن يبعد عينيه من فوق الطائرة الورقية ، صاح .
- أهلا ، طاهر . صدقنى . أنا لا أتسلى . أنا أعمل .

تقدم طاهر نحو السطح ، وهو يرتدى بدلته الضيقة ، وياقته القصيرة
ورابطة عنقه . لم يكن هذه المرة حافيا . بل يرتدى حذاء بنعل جديد ضخم . صنُع
كى يعيش طويلا . أحدث ضجة ملحوظة فوق البلاط الذى يغطى أرض السطح .
بدت هذه الضجة كأنها تعجب طاهر . لأنه فى كل خطوة يئن فى كرامته . اقترب
من كريم . ووضع يده على كتفه العارى ، وقال :

- أنا سعيد ان أراك فى كدك اليومى . فلديك سطح رائع . كما أعرف .
اسمع ، يجب أن أعتذر عن تلك الأمسية . لقد تقهم صديقك هيكلم موقفى . ولكنى
يجب ان اتكلم اليك .

قال كريم: لا أريد شيئا .

لم ينظر الى طاهر . بل استمر فى تأمل الطائرة بعينيه . الآن ابتعدت
السحابة الكبيرة . وظهرت الشمس ، ساطعة مثلما شحبت أثناء هذا الغياب
الطويل . راحت أشعتها تتعكس على هيكل الطائرة الورقية الصفراء ، التى تبعد
فى زرقة السماء وكأنها انغمست فى الذهب . أحس كريم بالمتعة لكل هذا الذهب
الذى يصبغ أطراف الخيط . ولكن متعته افسدتها اشياء اكثر واقعية . فحضور
طاهر إلى سطحه لم يكن على هواه بالمرّة . بل على العكس بدأ مرعبا . فقد وضعه
طاهر فى موقف صعب . أيضا فإن وجود شخص ثورى عنده يمكن ان يسبب له
مشاكل لا حصر لها . لأنه يعرف أن الشرطة يجب أن تستجوبه عن زميله القديم .

وإذا عرفت ، لسوء الحظ ، نبأ هذه الزيارة ، فلن يفوتهم أن يسببوا له المتاعب .
منها أنهم سيمنعونه من الإقامة فى هذا السطح . سوف يضطرونه أن يغادره ،
وهذا أمر متوقع بلا أدنى شك . ولكن ماذا يفعل ؟ لا يمكنه أبدا أن يسد بابه أمام
طاهر . فهذا لا يتناسب قط مع طبيعته . فهو لديه أعلى قدر من حسن الضيافة ،
ومهما حدث فهو يعرف أنه يطرد زميلا قديما من بيته إلى الأبد .

بدا طاهر غاضبا من الطريقة التى استقبله بها . اعتقد أن كريم مشغول
بطائرته الورقية عنه . قال له :

- أترك هذه الطائرة . وانظر الى .

قال كريم وهو لا يزال يرفع عينيه الى السماء : لقد استغرقت ساعة كى
أطيرها عاليا . ألا تجد هذا جميلا ؟

- لا أنوى أن أتسلى بطائرة ورقية . ماذا تتصورنى ؟ هيا . كف عن اللعب
يجب أن أتكلم فى أشياء جادة .

انتبه كريم : ماذا أفعل بالله عليك ؟ هناك آلاف الرجال فى هذه المدينة
ويجب عليك أن تأتى الى لتكلمنى فى أشياء جادة . ألا يمكنك أن تتسلى قليلا
انظر الى هذه الطائرة الورقية . إنها تحفة .

قال طاهر بصوت غامض : لقد جئت اليك لأنك تسكن هذا السطح .

- هذا السطح . هل تود شراءه ؟

- لاتقل مثل هذه الغباءات . أريد أن أكون هنا بين الساعة التاسعة
والعاشرة . سيكون سهلا عليك أن تؤدى كل هذه الخدمة ؟

- ماذا ستفعل . هل ستستقبل فتاة ؟ ساكون سعيدا أن أعيرك حجرتى .

سكت طاهر . رفع رأسه ونظر الى الطائرة الورقية الساكنة فى السماء .
يجب عليه أن يجرب كافة أشكال الصبر كى ينجح فى لفت انتباه كريم . أما
بالنسبة لاقتناعه بمشروعه . فان هذا أمر بالغ التعقيد . هذا الغبى يتصرف
كمهندس لأنه يطير طائرة ورقية . لا علاج لمثل هذا التحدى . اعتقد طاهر أنه يواجه

أشد ما يكرهه وهو الدخول مباشرة فى الموضوع. كيف يبلغه ؟ كيف يدخل فى الأمر طالما أنه ينكر مسألة الكرامة والشرف ؟ هذه الكنوز الروحية التى يحتفظ بها الشحاذون المساكين فى أثوابهم الرثة . إنه يبدو كطفل مشدود خلف طائرته . بينما الشعب يعانى ، ويفرق المدينة فى قاذوراتها . ود طاهر أن يبكى . وأن يصرخ ويضربه . لكنه كظم غيظه لأنه يمثل هذا الشعب ، واجبه يتطلب السكوت مؤقتا وابتلاع مرارته . وألا يفكر سوى فى هدف محدد . قال بلهجة ناعمة وبدودة كأنه يأمل أن يصحبه كريم إلى حفل :

- هل تعرف أن هناك احتفالا كبيرا هذا المساء فى الكازينو .

- لا . بشرفى . فلست اجتماعيا مثلما تعتقد .

- الأمر لايتعلق بالاجتماعيات . فأنا اتجنبها . وأنت تعرف أن المحافظ

سيذهب . فهو راعى الحفل .

سأل كريم ، وقد أصابه القلق فجأة من اسم المحافظ :

- وماذا ؟

- سيمر بسيارته ، ومعه موكبه من الدراجات البخارية ، على طريق

الكورنيش . إنها الوسيلة الوحيدة الممكنة . لقد درست الموقف .

- ماذا تقصد بالضبط ؟ أنا لا أفهم شيئا قط .

أخذ طاهر وقته قبل أن يرد . نظر الى وجه كريم الرقيق . وقد شدد يديه

على خيط الطائرة الورقية . ثم رمى كلامه :

- حسنا ، الأمر بسيط . ساكون هنا ومعى قنبلة . سألقيها على سيارته ،

فهذا أحسن مكان .

صاح كريم وهو يرمق طاهر بعينيه الخائفتين : نحن هنا . أشك أن هناك

قنبلة فى أى مكان .

تمايلت الطائرة الورقية على هواها . ثم انحرفت بشكل مربع ، وسقطت

على مسافة أمتار . كطائرة ضائعة . جرى كريم فوق السطح دون أن يثير قلق

طاهر. متناسيا الموضوع الهام الذى حدثه عنه. لم يفكر سوى فى إنقاذ طائرته الورقية من الكارثة . ثم ثارت أحاسيسه. وبكل سرعة، حاول أن يعيد الطائرة الورقية الى توازنها. ثم أمسكها فى وسط السطح، وأحس بفخر لأنه استطاع أن يسيطر عليها بفضل خبرته فى السباحة الجوية. صاح طاهر:

— يرافو. لقد أمسكتها بأعجوبة، أعترف أنك ادهشتنى.

كان المديح المنطلق من طاهر ممزوجا بسلوك دبلوماسى ثقيل. أحس فيه كريم بالغثيان. رد دون أن يلتفت اليه:

— ياعزيزى طاهر، اعرف اننى لا أشاركك قط فى أعمال العنف وسطح بيتى ليس سلخانة.

قال طاهر وهو يقترب منه: لايمكنك أن ترفضنى، لأننى لست الوحيد الذى ترفضه. لكن كل زملائنا، لأنك تعرف جيدا أنهم طربونى.

ابتسم كريم فى داخله، ويردائه الضيق وياقته القصيرة الجامدة ورابطة عنقه. بدا طاهر أشبه بشخص متواضع أراد أن يجعله يعرف أن وراءه مؤسسة، شعبا ربما، مستخدما فمه، محاولا أن يمتلكه بالكلمات. هل يعامله كشخص غبى؟ انتابت كريم شفقة من سذاجته. إنه واثق أن كريم لن يتكلم لأحد عن مشروعه، فهو كتوم. كما أن وسواسه يجعله يؤمن بمناهضة الظلم والقهر، انه يغلى فى داخله بما يحمله من آراء حول المعاناة الانسانية، انه مستعد أن يرتكب جريمة عنيفة قد تقوده الى المشنقة حتما، راح يتصرف كرجل ضرير يمشى نحو هاوية، فالامر بالنسبة له غريزة مصيرية، فوق جبينه أنه منذ ميلاده. ويجب أن ينجزه. أنه بلا شك لايعرف أن المحافظ سيتترك منصبه، وهو بذلك سيقتل رجلا مات معنويا.

قال كريم:

— اسمعنى جيدا، فالمحافظ فقد وظيفته. لم يبق أمامه سوى ساعات، فالوزير طلب منه الاستقالة. وقريبا لن يكون سوى نكرى. أعرف هذا من مصدر موثوق.

قال طاهر بكل ازدراء: لا تحاول أن تحكى لى قصصا. فمصادرك ساخرة هل تريد أن تجعلنى أصدق أن اعلاناتكم قد اقالته؟

— نعم، إعلاناتنا. أعرف أنه من الصعب عليك أن تصدق، لكننى أقسم لك.

فلتتخل عن مشروعك.

- أبدا. لقد قررنا أن نضربه ضربة قاضية. سيموت الطاغية. وقد قلت هذا. وسوف تساعدنا.

مالم يقله لكريم أنه يدبر هذا الاغتيال كى يغسل العار ليكافىء دعايات ونزوات هيكل. هذا الصفيق محطم الثورة. سوف تشك فيه الشرطة على أنه مدبر هذه المذبحة، مثل السم الذى يسرى فى الدم. فإنه لم يتحمل أن يستكمل نضاله مادام الاتهام الظالم يقلب أفكاره، فعليه أن يكشف للسلطة أنه لم يتخل عن اساليبه، وأن يبلغهم أنه من الممكن الاعتماد عليه. فلا يتركه ينام فى هدوء، ود أن يهزم بحدث بشع يجعلهم يفهمون أن كل هذه الإعلانات وكل هذه القصص بشأن إقامة تمثال للمحافظ، لاتتفق مع مفاهيمه فى قلب السلطة. وبعد هذا الاغتيال سيضطرون إلى معالجة أخطائهم، إنها المحاولة الوحيدة التى أمامه كى ينفذ شرف حزبه فى مواجهة الحكومة، فظاهر لايميل للأساليب الاقل دموية، قال كريم الذى بدا فى استعادة طائرته الورقية وهو يسحب الخيط، ويلفه حول قبضته:

- من الافضل الاعتماد على، فأنا لن أوافق قط أن أمشى على دربك.

هتف طاهر غاضبا: هذه ليست حيلة، بل بسبب الشعب الذى أصبح لعبة.
ألا تحب هذا الشعب؟

هتف كريم غاضبا: أنا لا أحب أسمى. لماذا تريدنى أن أحب الشعب؟

- انت تتكلم كوغد. قل إنك خائف.

- بالتأكيد أنا خائف، ماذا تعتقد؟ فأنا أحب الحياة.

أشار طاهر وهو يلوح بإصبعه إلى الطائرة الورقية: هل هذا ماتسميه

حياة؟.

قال كريم مبتسما: انها تبدو لك غريبة. أما بالنسبة لى. فطيران طائرة ورقية يكفى أن يجعلنى سعيدا. حكومتك لاتهمنى إلا بقدر ما تسلينى، ولايهمنى موتها، فأنا مرعوب من البكاء.

وأكمل نوران الخيط حول قبضته، انخفضت الطائرة شيئا فشيئا. راح طاهر ينظر إليه ببرود وأحس بأنه مقهور، أثارته وقاحة كريم، لكنه استطاع أن

يسيطر على سخطه، لم ير سوى مهمته المرعبة، فاغتيال المحافظ أصبح بالنسبة له مسألة حياة أو موت، لم يتراجع أمام أى عقبات، أو تضحية، عليه كى يصل إلى هذا الهدف السامى أن يلح ويصر، فهذا نوره كمناضل، ورغم أنه يعتبر كريم خائنا وجاحدا، فإنه مستعد أن ينحنى أمامه ويرجوه أن يوافق على فكرته. لكن كريم لم يعره اهتماما، انتزعه من قلبه تماما، فهو ليس سوى آلة يصفى بها حساباته مع المحافظ.

وصلت الطائرة الورقية إليهما كطائر ضخم جريح بدا شامخا وسط الشمس، وضعها كريم أرضا برقة. ثم راح يجمعها ويضعها فى ركن من الشرفة. وأثناء ذلك بدا طاهر فريسة لسراب راح يشده للأغوار، ويدخله فى فراغ قوته المنتفخة. تأمل صامتا، مبهوتا وغاضبا، الفتاة الواقفة عند باب غرفة كريم. إنها «قمر» العاهرة الصغيرة الذى جاءت تلحق بحبيبها، والتي رأت غريبا فوق السطح. تماسك، مندھشا رغما عنه. قد أخذت حماما ويبدو مظهرها منتعشا ولطيفا، يبدو جسدها الغض واضحا تحت رداؤها الشفاف مما أثاره بشكل غريب. ادار طاهر عينيه بتأذ. وكان هذا الظهور يمثل بالنسبة له صورة فاجرة فاسقة. تمتم وهو يوجه كلامه لزميله:

- انت الآن تعيش مع امرأة.

قال كريم: انها عشيقتى. تعال أقدمها لك.

- أنا لا أهتم. ولكن، لعلها سمعت حديثنا.

- لا تهتم، فلن تتخلص منك، إنها ضحية المحافظ. فجنوده يمنعونها من

التجول

قال طاهر: يا للجنة على مثل هذه الضحية، إنها لاتمثل أية أهمية. ليست سوى إفران لنظام اجتماعى يقهرنا.

صاح كريم: كيف، هل تعتبرها هكذا، أجمل إفران فى العالم. أشعر

بالسعادة التامة مع هذا النوع من الإفرازات.

قبل لحظة أحس طاهر أن هناك أملا ضعيفا لإقناع كريم. ولكن بعد أن

رأى هذه الفتاة ذات المظهر الوحشى، فهم أنه من غير المجدى أن ينتظر شيئا من

رجل يعيش فى فحشاء وفجور. لقد وقع كريم تحت سطوة لحم هذه الفتاة. وأصبح عبداً للجنس، ظل يسبح فى ماخور النظام، ولا يمكنه قط أن يخدم أهدافه كرجل ثورى. قال:

- سأذهب. ولكن لن أضيع وقتى، لقد علمتني أمى إلى أى حد يمكن للإنسان أن يكون حقيراً.

قال كريم: انتظر، سوف أعد لك قهوة، ألا تريد أن تتناول فنجان قهوة؟ تذكر أنه قد خيب أمل كل الأنظمة المدنية عندما لم يقدم شيئاً لظاهر. فأحس بخجل شديد.

لم يستدر طاهر ليعلم موافقته أو قبول دعوته. فقد راحت أصوات قباقبه تدق السلم لفترة، ثم اختفت للأبد.

عبرت «قمر» السطح، وأقتربت من عشيقها:

- من هذا الرجل؟ إنه يخيفنى.

رد كريم: انه صانع قنابل.

اندهشت الفتاة: قنابل، يانهار أسود.

- بالعكس، انه نهار رائع.

ثم أمسك كتفها وضمها اليه، وأعادها إلى الحجر. لكن حكاية الاغتيال هذه لم تعطه أى رغبة فى ممارسة الحب.

وفى ظهيرة اليوم التالى، وبينما هو يفتح الجريدة التى أحضرها له -خادمه علم هيكلاً نبأ اغتيال المحافظ. وفى الصفحة الأولى من الجريدة صورة تمثل عربة المحافظ محطمة من انفجار قنبلة. وصورة طاهر. دأى الوجه متورماً. وقد كُجّلت يداه فى قيود ممتدة أمامه بطريقة تنم عن الاعتزاز. ملأت تفاصيل الاغتيال صفحات عديدة، لم يذهب هيكلاً بعيداً. فرك الجريدة وألقاها أرضاً، فقد بُوغت برعب هذا العنف المجانى. فالمحافظ الذى كاد يختفى تماماً من الحياة، قد أصبح شهيداً على يدى طاهر، وأصبح الجلاذ ضحية، ونموذجاً حياً للوطنية والفداء لأجيال المستقبل وسط المخادعين الخالدين.

رقم الايداع ٧٩٠٩ / ١٩٩٣

I. S. B. N

977 - 07 - 0282 - 8

هذه الرواية

حضلت هذه الرواية على جائزة
الأكاديمية الفرنسية قبل عامين .

حدث ذلك كمحاولة لإعادة اكتشاف أهم
روائي يكتب أدبا أجنبيا باللغة الفرنسية
واعتبر أن البير قصيرى هو الكاتب الأكثر
أهمية فيمن يكتبون بهذه اللغة بعد سيدار
سنجور .

ورواية «العنف والسخرية» هي أهم
روايات الكاتب على الإطلاق . وذلك حسبما
كتب قصيرى فى خطابه الى روايات الهلال
«إنه لمن أسباب السعادة بالنسبة لى أن
أكون مقروءاً فى وطنى ، خاصة أن «العنف
والسخرية» هي أكثر أعمالى قريبا الى
قلبى»

ولذلك فإن أقل ما نفعله اليوم أن نقدم
الترجمة الكاملة لهذه الرواية . ونحن نحثقل
بالعيد الثمانين لميلاد قصيرى .

إنها واحدة من الروايات التى تأخرت
ترجمتها إلى لغتها العربية ، رغم أنها يمكن
أن تغير خريطة الرواية العربية فى القرن
العشرين . ليس فقط لأنها تناولت
موضوعات شديدة السخونة والحساسية فى
كل العصور . بل أيضا للغة الأدبية الرفيعة ،
البالغة الخصوصية التى يستخدمها
الكاتب .



البير قصيرى

● ولد فى القاهرة فى ٣
نوفمبر ١٩١٣ .

● تلقى تعليمه فى المدارس
الفرنسية بالقاهرة . وبدأ يكتب
القصة القصيرة . ثم الرواية
وترجمت بعض أعماله الى اللغة
العربية فى مجلة «التطور» .

● نشر مجموعته
القصصية الأولى «بشر نساهم
الله» عام ١٩٤٠ ، ثم روايته
«منزل الموت الاكيد» فى مصر
عام ١٩٤٦ .

● سافر الى فرنسا للاقامة
بأحد الفنادق الصغيرة ، وهناك
نشر روايات قليلة العدد منها
«شحاتون ومعتزون» عام ١٩٥٥ ،
و«العنف والسخرية» و «كسالى
الوادى الخصيب» عام ١٩٦٤
و«مؤامرة المهرجين» . وتدور
أحداثها جميعا فى الاحياء
الشعبية المصرية .

● حصل على جائزة
الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٩٠ .

● تحولت أعماله الى أفلام
سينمائية فى مصر ، وفرنسا ،
واليونان ومنها «الناس الى
جوه» ، و«شحاتين ونبلاء» .

روايات الهلال تقدم

١٩٥٤

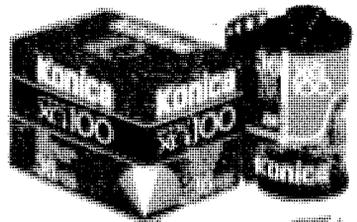
بقلم

جميل عطية ابراهيم

تصدر : ١٥ نوفمبر سنة ١٩٩٣

كونيكا Konica

كاميرات
أفلام
معامل طبع وتحميض
شرايط فيديو



الوكيل

Bibliotheca Alexandrina



0206969

٩٦ شارع أحمد عرابي -
ت. ٢٤٤٠٠١٢٠ فاكس

شركة إسفهاى